تلاعب الشيطان بعقول اليهود

{ذِكر أكثر من عشرين لعبة من ألاعيب الشيطان بعقول اليهود

وحاخاماتهم}

جزء منتقى من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»

للعلامة شمس الدين ، محمد بن أبي بكر الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١ هـ)

ويليه:

نبذة مختصرة في أصول العقيدة الإسلامية

تأليف: ماجد بن سليمان ، رحمه الله

مقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فهذا جزء منتقى من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لشمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ، يُبين التغير التدريجي الذي حصل في عقيدة اليهود على مر القرون ، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من التناقض والاضطراب الشديد.

والذي دعاني لإفراد هذا الجزء كونه مغمورا في الكتاب المشار إليه ، فربما لا يفطن الناس له ، لا سيما اليهود ، فأخرجته مستقلا ، ليعم النفع ويسهل الانتشار.

والهدف الكلي من نشر هذا الجزء ليس هو مغالبة اليهود على دينهم أو الانتصار لمنهج معين ، لا والله ، وإنما هو بيان الخلل الحاصل ، ثم التعاون للوصول إلى الطريق الذي أراده الله تعالى لعباده كلهم ، وبيَّنه على لسان أنبياءه ، ولم يرتضِ طريقا غيره.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أنه لما حصل الاضطراب بين أهل الكتاب – اليهود والنصارى – في عقائدهم ؛ لم يتركهم الله تعالى – حيارى مضطربين ، بل أرسل إليهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ليردَّهم إلى جادة الصواب.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا النبي في التوراة والإنجيل ، والمنصفون من اليهود يعلمون تلك الإشارات ، ولذا يحصل التحول عندهم إلى دين الإسلام ، لأنهم علموا أن اتِّباع دين محمد ما هو إلا اتباع لتعاليم موسى عليهما جميعا أفضل الصلاة والسلام.

وأما ابن القيم رحمه الله فهو محمد بن أبي بكر بن سعد الزُّرَعي ثم الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية ، من علماء المائة الثامنة ، لازم شيخه ابن تيمية إلى أن مات سنة ٧٢٨ ، فكان من كبار تلامذته ، ثم حمل بعده لواء الدعوة والجهاد العلمي إلى أن مات سنة ٧٥١ ، كان واسع المعرفة ، قوي الحجة ، دقيق الاستنباط ، كثير المصنفات ، ومؤلفاته مقبولة عند جميع الناس ، حتى صار من بعده عيالا عليه ، نصر العقيدة الإسلامية نصرا مؤزرا ، ورد على المبتدعة نظما ونثرا ، لاسيما المتفلسفة والقبورية والمؤولة والمتصوفة ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد جدد هو وشيخه – ابن تيمية – دين الله ، فكانا منعطفا في حياة الأمة الإسلامية.[1]

وبعد:

فقد اعتمدت في إخراج هذا الجزء على الله تعالى أولا ، ثم على النسخة التي نشرتها دار عالم الفوائد بتحقيق المحقق الفاضل محمد عزير شمس حفظه الله[2] ، فهي الأصل ، وربما أشرت في بعض المواطن إلى فروق عن النسخة المنشورة من قِبَلِ دار ابن الجوزي ، والتي حققها فضيلة الشيخ المحقق علي بن حسن بن عبد الحميد حفظه الله[3].

---

[1] انظر ترجمته موسعة في «شذرات الذهب» لابن العماد و «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ، ومن أجمع من ترجم له الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله في كتابه «ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره».

[2] يقع الجزء في الصفحات: ص ١٠٧٤ إلى آخر الكتاب.

[3] يقع الجزء في الصفحات: ص ١٠٥٣ إلى آخر الكتاب ، وقد أذِن لي حفظه الله في الاستفادة من تخريجاته وتعليقاته على الكتاب.

والله أسأل أن يوفق جميع الناس لسلوك طريق الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده كلهم ، إنسهم وجنهم ، كما قال تعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان ، في صبح الثاني والعشرين من شوال ، لعام ١٤٣٣ هجري.

Think.logic.always@hotmail.com

{تلاعب الشيطان بعقول اليهود}

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»:

{فصلٌ في ذكر تلاعبه بالأمة الغضبية وهم اليهود}

قال الله تعالى في حقهم ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزِّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾[١] ، وقال تعالى ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنهُ الله وغضِب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾[٢] ، وقال تعالى ﴿ترى كثيرا منهم يتولَّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾[٣].

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون.[٤]

---

[١] سورة البقرة : ٩٠ .

[٢] سورة المائدة : ٦٠ — ٦١ . والآيات من قوله ﴿وعبد الطاغوت﴾ إلى قوله ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ مثبتة في نسخة علي وليست مثبتة في نسخة عزير.

[٣] سورة المائدة : ٨٠ .

[٤] رواه الترمذي (٢٩٥٣ ، ٢٩٥٤) وابن حبان (٦٢٤٦) وأحمد (٣٧٨/٥ - ٣٧٩) ، وصححه الألباني رحمه الله.

فأوَّل تلاعبِ الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيها ، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون ، وإغراقه وإغراق قومه ، فلما جاوزوا البحر رأوا قوما يعكُفون[1] على أصنام لهم فقالوا ﴿يا موسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة﴾[2] ، فقال لهم موسى عليه السلام ﴿إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾[3] ، فأيُّ جهلٍ فوق هذا ، والعهد قريب ، وإهلاك المشركين أمامهم برأيِ عيونهم ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلٰها ، فطلبوا من مخلوقٍ أن يجعلَ لهم إلٰها مخلوقا ، وكيف يكون الإلٰه مجعولا؟ فإن الإلٰه هو الجاعل لكل ما سواه ، والمجعول مربوب مصنوع ، فيستحيل أن يكون إلٰها.[4]

وما أكثر الخَلَفِ لهؤلاء في اتخاذ إلٰهٍ مجعولٍ ، فكل من اتخذ إلٰها غير الله فقد اتخذ إلٰها مجعولا ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان في بعض غزواته ، فمرُّوا بشجرة يُعلِّق عليها المشركون أسلحتَهم وشاراتَهم[5] وثيابَهم ، يُسمونها «ذات أنواط» ، فقال بعضهم: يا رسول الله ، اجعل لنا «ذات أنواط» كما لهم «ذات أنواط».

فقال: الله أكبر ، قلتم كما قال قوم موسى لموسى ﴿اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة﴾.

---

[1] يعكفون أي يقيمون في مكان ويلزمونه مدة. انظر «النهاية».

[2] سورة الأعراف : ١٣٨ .

[3] سورة الأعراف : ١٣٨ – ١٣٩ .

[4] هذا من وجوه بطلان دعاء غير الله ، وقد يسر الله القيام ببحث بعنوان «خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله» ، وهو من منشورات مكتبة الاستقامة بمصر.

[5] شاراتهم جمع شارة وهي اللباس الحسن كما في «المعجم الوسيط».

ثم قال: لتركبُنَّ سَنَنَ[1] من كان قبلكم (حَذو القُذَّةِ بالقذة)[2].[3]

فصلٌ ، ومن تلاعبه بهم عبادتهم العِجل من دون الله تعالى[4] وقد شاهدوا ما حلَّ بالمشركين من العقوبة والأخذةِ الرَّابية[5] ، ونبيهم حيٌّ لم يمت ، هذا وقد شاهدوا صانعَه يصنَعُهُ ويصُوغه ويُصليه النار ، ويدُقُّه بالمطرقة ، ويسطو عليه بالمبرد ، ويُقلِّبه بيديه ظهرًا لبطنٍ.

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلٰهَهم حتى جعلوه إلٰهَ موسى ، فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى ، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعًا عن نفسه ، بحيث يُضرب به المثل في البلادة والذل ، فجعلوه إلٰهُ كليمِ الرحمٰن [6].

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالا مخطئا فقالوا ﴿فنسِي﴾[7] ، قال ابن عباس: أيْ: ضلَّ وأخطأ الطريق.

وفي رواية عنه: أيْ إنَّ موسى ذهب يطلب ربه فضلَّ ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضا: نسِيَ أن يذكر لكم أن هذا إلٰهَه وإلٰهَكم.

وقال السُّدِّي: أي ترك موسى إلٰهَه هٰهنا وذهب يطلبه.

---

[1] السَّنَن جمع سنة وهي الطريقة والمسلك.

[2] ما بين القوسين ليس من لفظ الحديث ، فقد وهم المؤلف فأدخله في هذا الحديث.

[3] رواه الترمذي (٢١٨٠) وابن حبان (١٥/٩٤) وأحمد (٥/٢١٨) والنسائي في «الكبرى» (١١١٢١) ، وصححه الألباني ، وفي بعض الألفاظ أن النبي ﷺ كبر ، وفي بعضها أنه سَبَّح.

[4] هذا هي الألعوبة الثانية.

[5] معنى أخذةً رابية: أي شديدة ، يريد بها إغراق فرعون وقومه.

[6] كليم الرحمٰن هو موسى ، لأنه الله تعالى كلمه ، كما قال سبحانه ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾.

[7] وتلك هي حجتهم ، قالوها لما عاتب موسى أخاه هارون في تركه لبني إسرائيل يعبدون العجل ، فقال هارون إنهم قالوا ﴿هذا إلهنا وإله موسى فنسي﴾. سورة طٰه : ٨٨ .

وقال قتادة: أي إنَّ موسى إنما يطلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر.

على هذا القول: المشهور أن قوله ﴿فنسي﴾ من كلام السَّامري وعُبَّاد العجل معه.

وعن ابن عباس روايةٌ أخرى: أنَّ هذا من إخبار الله تعالى عن السامري أنه نسي ، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان.

والصحيح القول الأول ، والسياق يدل عليه ، ولم يذكر البخاري في «التفسير» غيرَه ، فقال: هم يقولونه: أخطأ الرب.[1]

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالا من بني إسرائيل يورِدونه عليه فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى ، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعدِ إلٰهِهِ؟

فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فنسي﴾.

وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم ، فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلٰها مصنوعًا مصُوغًا من جوهرٍ أرضيٍّ ، إنما يكون تحت التراب ، محتاجا إلى سبكٍ بالنار ، وتصفيةٍ وتخليصٍ لِخبثه منه ، مدقوقا بمطارق الحديد ، مُقلَّبًا في النار مرة بعد مرة ، قد نُحِت بالمَبارد ، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذُّل والضَّيم ، وجعلوهُ إلٰهِ موسى ، ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلٰهًا غيرَه.

قال محمد بن جرير[2]: (وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال: حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي قال: حدثنا

---

[1] انظر «صحيح البخاري» ، كتاب التفسير ، تفسير سورة طه ، وقد تم ضبط كلامه منه.

[2] هو العالم المجتهد المحدث الفقيه المقرىء المفسر ، علامة وقته ، محمد بن جرير بن يزيد ، أبو جعفر الطبري ، مات سنة ٣١٠ ، انظر ترجمته في «السير» (٢٦٧/١٤) ، و «وفيات الأعيان» (١٩١/٤-١٩٢).

سفيان بن عيينة قال: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابُه ، وكان فرعون على فرسٍ أدهمَ[١] ، ذنوبٍ[٢] حصانٍ ، فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر ، فتمثَل له جبريل على فرس أنثى ودِيق[٣] ، فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها.

قال: وعرَف السامري جبريل ... فقبض قبضة من أثر فرسه ، قال: أخذ من تحت الحافر قبضةً.

قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرؤها ﴿فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول﴾.

قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: وأُلقِي في رَوعِ[٤] السامري: إنك لا تُلقيها على شيء فتقول: (كن كذا وكذا) إلا كان.

فلم تزل القبضة معه في يده حتى جاوز البحر ، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر وأغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هارون ﴿اخلفني في قومي وأصلِح﴾ ، ومضى موسى لموعد ربه.

قال: وكان مع بني إسرائيل حُلِيٌّ من حُليِّ آل فرعون قد تعوَّروه[٥] ، فكأنهم تأثَّموا منه ، فأخرجوه لتنزِل النار فتأكله ، فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا ، فقذفها فيه ... وقال: (كن عجلا

[١] فرس أدهم أي أسود ، انظر «المعجم الوسيط».

[٢] ذنوب أي وافرة الذنب ، وتأتي بمعنى طويلة ، انظر «المعجم الوسيط».

[٣] فرس وديق أي تشتهي الفحل. انظر «المعجم الوسيط».

[٤] رَوعِ السامري أي نفسِهِ وخَلَدِهِ. انظر «النهاية».

[٥] تعوَّروه أي استعاروه.

جسدا له خُوار[1]) ، فصار عجلا جسدا له خوار ، وكان يدخل الريح من دُبُره ويخرج من فِيهِ ، يُسمع له صوتٌ ، ﴿فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى﴾ ، فعكفوا على العجل يعبدونه ، فقال هارون ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾).[2]

وقال السُّدِّي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ؛ أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا ، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القِبط[3] ، فلما نجَّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر وأغرق آل فرعون ؛ أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله ، فأقبل على فَرَس ، فرآه السامري فأنكره ، ويقال إنه فرس الحياة ، فقال حين رآه: (إن لهذا لشأنا) ، فأخذ من تربة حافر الفرس ، فانطلق موسى عليه السلام واستخلف هارون على بني إسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة ، فأتمَّها الله تعالى بعشر ، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل إن الغنيمة لا تَحِلُّ لكم ، وإن حُلي القبط إنما هو غنيمة فاجمَعوها جميعا واحفِروا لها حفرة فادفنوها ، فإن جاء موسى فأحلَّها أخذتموها.

فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة ، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها ، فأخرج الله من الحلي عجلا جسدا له خوار ، فلما رأوه قال لهم السامري ﴿هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي﴾ ، يقول: (ترك موسى إلٰهه هٰهنا وذهب

---

[1] الخُوار هو صوت البقر. انظر «النهاية».

[2] انتهى هنا كلام ابن جرير ، وقد نقله المؤلف باختصار بعض ألفاظه كما أوضحت بالنقاط ، وقد ضبطت النص من المطبوع ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

[3] القبط هم نصارى مصر. انظر «المعجم الوسيط».

يطلبه) ، فعكفوا عليه يعبدونه ، وكان يخورُ ويمشي ، فقال لهم هارون ﴿يا بني إسرائيل إنما فُتنتم به﴾ ، يقول: إنما ابتُليتم بالعجل وإن ربكم الرحمٰن ، فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يُقاتلونهم ، وانطلق موسى إلى الله يكلمُه ، فلما كلمه قال له ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أَثَري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾ ، فأخبره خبرَهم ، قال موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتَّخذوا العجل ، فالروح مَنْ نفخها فيه؟

قال الرب تعالى: أنا.

قال: يا رب أنت إذًا أضللتهم.

وقال ابن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان السامري من قوم يعبدون البقر ، فكان يحب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل ، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: (أنتم قد حملتم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعةً وحليًّا ، فتطهَّروا منها فإنها نَجَس) ، وأوقد لهم نارا فقال: (اقذِفوا ما كان معكم من ذلك فيها) ، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي فيقذفون به فيها ، حتى إذا انكسر الحلي فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل ؛ فأخذ ترابا من أثر حافره ثم أقبل إلى النار فقال لهارون: (يا نبي الله ، أُلقِي ما في يدي؟) ، ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة ، فقذفه فيها فقال: (كن عجلا جسدا له خوار) ، فكان البلاء والفتنة فقال: (هذا إلٰهكم وإلٰه موسى) ، فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يُحبوا شيئا مثله قط.

يقول الله عز وجل ﴿فنسي﴾ ، أي ترَك ما كان عليه من الإسلام – يعني السامري – ﴿أفلا يرون ألَّا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا﴾ ، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه قال ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ ، فأقام هارون فيمن معه من المسلمين[1] ممن لم يُفتتن ، وأقام من يعبُد العجل على عبادة العجل ، وتخوَّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى ﴿فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي﴾ ، وكان له هائبا مطيعا ، فقال تعالى مُذكِّرا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ ، يعني من بعد ذهابه إلى ربه ، وليس المراد من بعد موته ، ﴿وأنتم ظالمون﴾ ، أي بعبادة غير الله تعالى ، **لأن الشرك أظلم الظلم ، لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.**

فلما قدِم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة ؛ اشتد غضبه ، وألقى الألواح عن رأسه وفيها كلام الله الذي كتَبه له ، وأخذ برأس أخيه ولحيته ، ولم يَعتَبِ الله عليه في ذلك ، لأنه حَملَهُ عليه الغضب لله ، وكان الله عز وجل قد أعْلَمه بفتنة قومه ، ولكن لما رأى الحال مشاهدةً حدث له غضبٌ آخر ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضا ما قصَّهُ الله تعالى في كتابه حيث يقول ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى

[1] سمى الله تعالى جميع الأنبياء وأتباعهم بالمسلمين ، لأن الإسلام بمعناه العام هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك ، وهذه دعوة جميع الأنبياء ، فلذا سموا بالمسلمين ، وأما المعنى الخاص للإسلام فهو الدين الذي بُعِث به محمد ﷺ .

نرى الله جهرة﴾ ، أي عَيانًا ، قال ابن جرير: ذكَّرهم الله سبحانه بذلك اختلاف آبائهم وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يُثلَج بأقلِها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس ، وذلك مع تتابع الحُجج عليهم ، وسُبوغ[1] نِعم الله تعالى لديهم ، وهم مع ذلك مرَّةً يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله ، ومرَّة يعبدون العجل من دون الله ، ومرَّة يقولون: (لا نصدقك حتى نرى الله جهرة) ، وأخرى يقولون له إذا دُعوا إلى القتال ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون﴾ ، ومرَّة يقال لهم ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم﴾ ، فيقولون: (حِنطةٌ في شعرة) ، ويدخلون من قِبَلِ أَستاهِهِم[2] ، ومرَّة يُعرَض عليهم العمل بالتوراة فيمتنعون من ذلك ، حتى نَتَقَ[3] الله تعالى عليهم الجبل كأنه ظُلَّةٌ ، إلى غير ذلك من أفعالهم التي آذَوا بها نبيَّهم التي يكثر إحصاؤها.

فأَعلمَ ربُّنا تبارك وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ أنهم لن يَعْدُوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدا ﷺ وجحودِهم نبوته وتركِهم الإقرار به وبما جاء به – مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره – ؛كأسلافهم وآبائهم الذين قصَّ الله علينا قَصصهم.

[1] سبوغ النعم أي كمالها وتمامها. انظر «المعجم الوسيط».

[2] أستاههم جمع (أست) وهو الدُّبُر.

[3] نتق أي اقتلع ورفع. انظر «تفسير ابن جرير» و«النهاية».

قال محمد بن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامري ما قال ، وحرَّق العجل وذرَّاهُ[1] في اليَمِّ[2] ؛ اختار موسى منهم سبعين رجلا ، الخيِّر فالخيِّر ، وقال: انطلقوا إلى الله عز وجل فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسَلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهَّروا وطَهِّروا نياتكم.

فخرج بهم إلى طُورِ سيناء لميقاتٍ وقَّته له ربُّه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلم ، فقال له السبعون – فيما ذُكِر لي – حين صنعوا ما أمرَهم به وخرجوا للقاء ربه: يا موسى ، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا.

قال: أفعل.

فلمَّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود غمامٍ[3] حتى تغشَّى الجبل كلَّه ، ودنا موسى فدخل عليه ، وقال للقوم: ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه ربُّه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضُرِب دونَه الحجاب ، ودنا القوم ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا ، فسمِعوه[4] وهو يُكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام ، فأقبل إليهم فقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ ، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فافتُلِتت أرواحهم فماتوا ، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويَرغب إليه ويقول: ﴿ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾.[5]

---

[1] الذَّرُّ هو نثر الفتات ، والفتات هنا هو ما خلَّفه حرق العجل من رماد. انظر «النهاية».

[2] اليم هو البحر.

[3] أي السحاب.

[4] أي الله تعالى.

[5] رواه كلام ابن أسحاق المتقدم ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية ٥٦ من سورة البقرة ، وقد ضبطت النص منه.

فإن قيل: فما مقصودُ موسى بقوله ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل﴾؟
فقد ذُكِر فيه وجوه:
فقال السُّدِّي: لما ماتوا قام موسى يبكي ويقول: ربِّ ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم.
وقال ابن إسحاق: اخترتَ منهم سبعين رجلا الخيِّر فالخيِّر ، أَرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يُصدقوني به أو يأمنوني عليه بعد هذا؟
وعلى هذا فالمعنى لو شئت أهلكتهم من قبلِ خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونني.
وقال الزجاج: المعنى: لو شئت أمتَّهم من قبل أن تبتليهم بما أَوجب عليهم الرجفة.
قلت: وهؤلاء كلهم حامُوا حول المقصود ، والذي يظهر – والله أعلم بمراده ومراد نبيه – أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه وتوسل إليه بعفوه عنهم من قَبل ، حِين عَبد قومُهم العجل ولم ينكروا عليهم ، يقول موسى إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم ، ومع هذا فَوَسِعَهم عفوُك ومغفرتُك ولم تهلكهم ، فَلْيَسَعَهُم اليوم ما وَسَعَهُم من قبل.
وهذا كما يقول من واخذه سَيِّدُهُ بِجرمٍ: لو شئتَ واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسِعني عفوك أوَّلا ، فليسعني اليوم.
ثم قال نبي الله ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ ، فقال ابن الأنباري وغيرُه: هذا استفهام على معنى الجحد ، أي لست تفعل ذلك ، والسفهاء هنا عَبَدَةُ العجل.

قال الفراء: ظنَّ موسى أنهم أُهلكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ ، وإنما كان إهلاكهم بقولهم ﴿أرنا الله جهرة﴾ ، ثم قال ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ ، وهذا من تمام الاستعطاف ، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك ، فأنت ابتليتهم وامتحنتهم ، فالأمر كلُّه لك وبيدك ، لا يكشفه إلا أنت ، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت ، فنحن عائذون بك منك ، ولاجئون منك إليك.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيدِهِ لهم أنهم قيل لهم وهم مع نبيهم والوحي ينزِل عليه من الله تعالى ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ ، قال قتادة وابن زيد والسُّدِّي وابن جرير وغيرهم: هي قرية بيت المقدس.

﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ ، أي هنيئا واسعا ، ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ ، قال السُّدِّي: هو باب من أبواب بيت المقدس.

وكذلك قال ابن عباس ، قال: والسجود بمعنى الركوع ، وأصل السجود الانحناء لمن تُعظِّمُهُ ، فكل مُنحنٍ لشيء معظِّما له فهو ساجد. قاله ابن جرير وغيره.

قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقِيين عند السلام أحدهما لصاحبه من السجود المحرم ، وفيه نَهي صريح عن النبي ﷺ .[1]

ثم قيل لهم ﴿قولوا حطة﴾ ، أي حُطَّ عنا خطايانا ، هذا قول الحسن وقتادة وعطاء.

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا «لا إله إلا الله».

---

[1] جاء النهي عن الانحناء عند السلام في حديث رواه الترمذي (٢٧٢٨) وابن ماجه (٣٧٠٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: الرجل منا يلقى صاحبه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا . والحديث صححه الألباني رحمه الله.

وكأنَّ أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحطُّ بها الخطايا ، وهي كلمة التوحيد.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أُمِروا بالاستغفار.

وعلى القولين فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار ، وضُمِنَ لهم بذلك مغفرة خطاياهم.

فتلاعبَ الشيطانُ بهم ، فبدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، وفعلاً غير الذي أُمروا به ، فروى البخاري في «صحيحه» ومسلم أيضا من حديث همام بن مُنبِّه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : قيل لبني إسرائيل ﴿ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾ ، فبدَّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أَستاهِهِم ، وقالوا: (حبَّة في شعرة).[1]

فبدَّلوا القول والفعل معا ، فأنزل الله عليهم رجزا من السماء.

قال أبو العالية: هو الغضب.

وقال ابن زيد: هو الطاعون.

وعلى هذا فالطاعون بالرَّصَد لمن بدل دين الله قولا وعملا.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم كانوا في البرية قد ظَلَّل عليه الغمام ، وأُنزِل عليهم المَنُّ والسلوى ، فملُّوا ذلك ، وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقِثَّاء ، فسألوه موسى عليه السلام ، وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم ، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة ، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها ، ولهذا قال لهم موسى عليه

[1] رواه البخاري (٣٤٠٣ ، ٤٦٤١) ومسلم (٣٠١٥).

السلام ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا﴾ ، أي مصرا من الأمصار ، ﴿فإنَّ لكم ما سألتم﴾ ، فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها وأطيبِها هواء ، وأبعدها عن الأذى ومجاورة الأنتان والأقذار ، سقفُهم الذي يظلهم من الشمسِ الغمامُ ، وطعامهم السلوى ، وشرابهم المَن.

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التِّيهِ واحدا وشرابهم واحدا ، كان شرابهم عسلا ينزل من السماء يقال له المَنُّ ، وطعامهم طيرٌ يقال له السلوى ، يأكلون الطير ويشربون العسل ، لم يكن لهم خبز ولا غيره ، ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة ، وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحَجَرِ اثنتا عشر عينا من الماء ، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير ، فذُمُّوا على ذلك ، فكيف بمن استبدل الضَّلال بالهدى ، والغيَّ بالرشاد ، والشركَ بالتوحيد ، والسنةَ بالبدعة ، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق[1] ، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظِّهِ مِنَ العيشِ النَّكِدِ الفاني في هذه الدار.

فصلٌ ، ومن تلاعبه بهم أنهم لما عُرِضت عليهم التوراة لم يقبلوها وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه ، حتى أَمَر الله سبحانه جبريل فقلع جبلا من أصله على قدرِهم ثم رفعه فوق رؤوسهم ، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم ، فقبِلوها كُرها ، قال الله تعالى ﴿وإذ نتقنا الجبل

[1] يعني رحمه الله بخدمة الخالق أي طاعته وامتثال أمره ، وليس القيام به ، إذ الخالق ليس بحاجة إلى من يخدمه ، بل هو القيوم سبحانه ، أي القائم بخلقه.

فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾.

قال عبد الله بن وهب: قال ابن زيد: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله وأمرُه الذي أمركم به ، ونهيُه الذي نهاكم عنه.

فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطْلُعَ الله إلينا فيقول: هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما كلَّمك أنت يا موسى ، فيقول: هذا كتابي فخذوه.

فجاءت غضبةٌ من الله تعالى ، فجاءتهم صاعقة فصعَقتهم فماتوا أجمعون.

قال: ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم ، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله.

فقالوا: لا.

فقال: أيُّ شيء أصابكم؟

قالوا: مُتنا ثم حيِينا.

فقال: خذوا كتاب الله.

قالوا: لا.

قال: فبعث الله ملائكته فنَتَقت الجبل فوقهم ، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟

قالوا: نعم ، الطور.

قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم.

قال: فأخذوه بالميثاق.

وقال السُّدِّي : لما قال الله تعالى لهم ﴿وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة﴾ ، فأبوا أن يسجدوا ، فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤوسهم ،

فنظروا إليه وقد غشِيهم ، فسقطوا سُجَّدًا على شِقٍّ ونظروا بالشِّقِّ الآخر ، فكشفه عنهم ، ثم تولوا من بعد هذه الآيات وأعرضوا ولم يعملوا بما في كتاب الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، فقال تعالى مُذكِّرا لهؤلاء بما جرى من أسلافهم ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾.

فصلٌ ، ومن تلاعبه بهم أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه ، وفَرَق بهم البحر[1] ، وأراهم الآيات والعجائب ، ونصرهم وآواهم وأعزَّهم وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب الله لهم ، وفي ضمن هذا بِشارتُهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم ، وأن تلك القرية لهم ، فأبوا طاعته وامتثال أمرِه ، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون﴾ ، وتأمل تَلطُّفَ نبيِّ الله تعالى موسى عليه السلام بهم ، وحسنَ خطابِه لهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وبِشارتَهم بوعد الله لهم بأن القريةَ مكتوبةٌ لهم ، ونهيَهم عن معصيتِه بارتدادهم على أدبارهم ، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين ، فجمع لهم بين الأمر والنهي ، والبِشارة والنَّذارة ، والترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعم السالفة ، فقابلوه أقبح المقابلة ، فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم ﴿يا موسى إن فيها قوما جبارين﴾ ، فلم يُوَقِّروا رسوله وكليمه حتى نادوه باسمه ، ولم يقولوا: يا نبي الله ، وقالوا: ﴿يا

[1] أي جعله فِرقتين.

موسى إن فيها قوما جبارين﴾ ، ونسوا قُدرةَ جبار السماوات والأرض ، الذي يُذل الجبابرة لأهل طاعته ، وكان خوفُهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظمَ من خوفِهم من الجبار الأعلى سبحانه ، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه ، ثم صرَّحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا ﴿لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ ، فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيدُ عذرِ العصيان بقولهم ﴿يا موسى إن فيها قوما جبارين﴾ ، **والثاني**: تصريحهم بأنهم غير مطيعين ، وصدَّروا الجملة بحرف التأكيد وهو (إنَّ) ، ثم حققوا النفي بأداة (لن) الدالة على نفي المستقبل ، أي لا ندخلُها الآن ولا في المستقبل ، ثم علَّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها ، فقال لهم رجلان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد إلى أمره ، مِنَ الذين يخافون الله ، هذا قول الأكثرين ، وهو الصحيح.

وقيل: مِنَ الذين يخافونهم من الجبارين ، أسلَما واتَّبَعا موسى عليه السلام.

﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ ، أي باب القرية ، فاهجموا عليهم فإنهم قد مُلِئوا منكم رعبا ، ﴿فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾.

ثم أرشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل ، فكان جواب القوم أن ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون﴾ ، فسبحان من عَظُمَ حِلمه حيث يُقابَل أمرُهُ بمثل هذه المقابلة ، ويُواجَهَ رسولُهُ بمثل هذا الخطاب ، وهو يحلُمُ عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة ، بل وسِعَهم حلمُه وكرمُه ، وكان أقصى ما عاقبهم به أن

ردَّدهم في برية التِّيهِ أربعين عاما ، يُظَلِّلُ[1] عليهم الغمام من الحر ، ويُنزِّلُ عليهم المنَّ والسلوى.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهِدتُ من المقداد بن الأسود مشهدا لأَن أكون صاحبَه أحبَّ إلي مما عُدِلَ به[2] ؛ أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون﴾ ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديك وخلفَك.

فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهُه وسَرَّه[3].[4]

فلما قابلوا نبي الله بهذه المقابلة قال ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

فصلٌ ، ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضا ما قصه الله سبحانه وتعالى في كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه[5] ، حتى أُمِروا بذبح بقرة وضربه ببعضها ، وفي القصة أنواع من العبر ، منها:

أن الإِخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ[6].

ومنها ، الدِّلالة على نبوة موسى ، وأنه رسول رب العالمين.

---

[1] في المطبوع (يُظِل) ، وما أثبته من نسخة (علي).

[2] أي لَأَن أكون صاحب ذلك الموقف أحبُّ إلي من كل شيء ، والمراد التنبيه إلى عَظمة ذلك المشهد. انتهى الغرض من كلام ابن حجر عليه في «فتح الباري».

[3] أي سرَّهُ كلام المقداد.

[4] رواه البخاري (٣٩٥٢) ، وأما مسلم فلم يروه ، فلعل المؤلف وهِم رحمه الله.

[5] تدافعوا فيه أي أن كل واحد دفع عن نفسه تهمة القتل واتهم بها غيره.

[6] أي محمد ﷺ .

ومنها ، الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولِهم إلى خاتَمِهم ، من معاد الأبدان وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها ، إثبات الفاعل المختار ، وأنه عالمٌ بكل شيء ، قادرٌ على كل شيء ، عدلٌ لا يجوز عليه الظلم والجور ، حكيمٌ لا يجوز عليه العبث.

ومنها ، إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات ، زيادةً في هداية المهتدي ، وإعذارًا وإنذارا للضُّلال.

ومنها ، أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتَّعنُّتِ[1] وكثرة الأسئلة ، بل يبادر إلى الإمتثال ، فإنهم لما أُمِروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الإمتثال بذبح أي بقرة اتَّفقت ، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال ، بل هو بمنزلة قوله: (اعتِق رقبة ، وأطعِم مسكينا ، وصُم يوما) ، ونحوِ ذلك ، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، فإن الآية غَنِيَّةٌ عن البيان المنفصل ، مبيَّنةٌ بنفسها ، ولكن لما تعنَّتوا وشدَّدوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أُمِروا أن يذبحوا بقرة استعرَضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم.

ومنها ، أنه لا يجوز مقابلة أمرِ الله – الذي لا يَعلم المأمورُ به[2] وجهَ الحكمةِ فيه – بالإنكار ، وذلك نوع من الكفر ، فإن القوم لما قال لهم نبيهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ ؛ قابلوا هذا الأمر بقولهم ﴿أتتخذنا هزوا﴾ ،

[1] التعنت هو التشدد وتصعيب الأمور وتعقيدها. انظر «المعجم الوسيط».

[2] المأمور به هو العبد المكلف.

فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا ﴿أتتخذنا هزوا﴾ ، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله ، فإنه أخبرهم عن أمرِ الله لهم بذلك ولم يكن هو الآمرُ به ، ولو كان هو الآمر به لم يجُز لِمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك ، فلما قال لهم ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ ، وتيقَّنوا أن الله سبحانه أمره بذلك ؛ أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عَيْنها ولونها ، فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها ، فلما تعيَّنت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولُهم لنبيهم ﴿الآن جئت بالحق﴾ ، فإنْ أرادوا بذلك أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة فتلك رِدةٌ وكفرٌ ظاهر ، وإن أرادوا أنك الآن بيَّنت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر ، فإن البيان قد حصل بقوله ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ ، فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح ، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة ، قال محمد بن جرير:

وقد كان بعض من سَلَفَ يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى ﴿الآن جئت بالحق﴾ ، وزعَم أن ذلك نفيٌ منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك كفر منهم ، قال[1]: وليس الأمر كما قال عندنا ، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها ، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهْلةً منهم وهفوةً من هفواتهم.

[1] أي ابن جرير الطبري.

فصلٌ ، ومنها الإخبار عن قساوة قلوب هذه[1] الأمة وغِلَظِها وعدم تمكن الإيمان فيها ، قال عبد الصمد بن معقِل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القومَ بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتِله أنكروا قتله ، وقالوا: (والله ما قتلناه) بعد أن رأوا الآية[2] والحق ، قال الله تعالى ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾.

ومنها مقابلة الظالم الباغي بنقيضِ قصده شرعا وقدَرا ، فإن القاتل قصْدُهُ ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه ، ففضحه الله تعالى وهتَكه وحرمَهُ ميراثَ المقتول.

ومنها أن بني إسرائيل فُتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب ، ففُتنوا بعبادة العجل وفُتنوا بالأمر بذبح البقرة ، والبقرُ من أبلد الحيوان حتى لَيُضرب به المثل.

والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل ، ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلُح أن يكون إلٰها معبودا من دون الله تعالى ، وأنه إنما يَصلُح للذبح والحرث والسقي والعمل.

فصلٌ ، ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضا ما قصه الله سبحانه علينا من قصة أصحاب السَّبت ، حين مسخهم قردة لما تحيَّلوا على استحلال محارمه ، ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام واستباحة الفروج

---

[1] كلمة (هذه) ليست عند عزير ، والمثبت من نسخة علي.

[2] يعني بالآية إحياء الميت الذي أنبأ بقاتله.

الحرام والدم الحرام ، وذلك أعظم إثما من مجرد العمل يوم السبت ، ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل وتلاعبوا بدينه وخادعوه كمخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال ؛ مسخهم الله قردة ، وكان الله سبحانه قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوما واحدا ، فلم يدَعْهم حرصُهم وجشَعُهم حتى تعدَّوا إلى الصيد فيه ، وساعدَ القدَرُ بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت ، وهكذا يفعلُ الله سبحانه بمن تعرَّض لمحارمه ، فإنه يرسلُها عليه بالقدَر ، حتى تزدلفَ[1] إليه بأيِّها يبدأ ، فانظر ما فعل الحرصُ وما أوجب من الحرمان بالكُلِّية ، ومن هٰهنا قيل: من طلبه كلَّه فاته كلَّه.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهم أيضا أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها ، وهذا من عدم فقههم وفَهمهم عن الله تعالى دينَه ، فإن أثمانها بدلٌ منها ، فتحريمها تحريم لبدلها والمعاوضة عنها ، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وأبدالها.

ومن تلاعبه بهم أيضا اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ، وقد لعنهم رسول الله ﷺ على ذلك ، ولعنتُهُ تتناول من فَعَل فِعلَهم.[2]

---

[1] أي تتقرب.

[2] من ذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. رواه أحمد (٥/١٨٤ ، ١٨٦) ، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

ومن تلاعبه بهم أيضا أنهم كانوا يَقتلون الأنبياء الذين لا تُنال الهداية إلا على أيديهِم[1] ، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى ، يُحرِّمون عليهم ويُحِلُّون لهم ، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم ولا يلتفتون ؛ هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أم لا.

قال عَدي بن حاتم: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يقرأ ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم﴾ ، فقلت: يا رسول الله: ما عبدوهم.

فقال: حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم إياهم. رواه الترمذي وغيره.[2]

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان ، أن يَقتُل أو يُقاتل من هُداه على يده ، ويتَّخذَ من لم تُضمن له عصمته نِدًّا لله ، يُحرِّمُ عليه ويُحلِّل له.

ومن تلاعبه بهم ما كان منهم في شأن زكريا ويحي عليهما السلام وقتلِهم لهما ، حتى سلَّط الله عليهم بختنصر وسنجاريب[3] وجنودهما ، فنالُوا منهم ما نالوه.

---

[1] آخر من قتلوا من الأنبياء هو نبينا محمد ﷺ ، حين أهدت له امرأة من خيبر شاة فدست السم فيها ، فأثر فيه حتى مات.

[2] رواه الترمذي (٣٠٩٥) ، والبيهقي (١١٦/١٠) وغيرهما ، وصححه ابن تيمية رحمه الله كما في «المجموع» (٦٧/٧) ، والألباني بشواهده في «الصحيحة» (٣٢٩٣) ، وهذا تمام لفظ البيهقي: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، قال: فسمعته يقول ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾.

قال: قلت: يا رسول الله ، إنهم لم يكونوا يعبدونهم.

قال: أجل ، ولكن يُحِلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ، ويُحرمون عليهم ما أحل الله فيُحرمونه ، فتلك عبادتهم لهم.

[3] انظر قصة تسليط الله بختنصر وسنجاريب وجنودهما على اليهود في تفسير ابن جرير لسورة الإسراء عند قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾.

ثم كان منهم في شأن المسيح ورميِه وأمِّه بالعظائم ، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم ، فكفروا به بغيا وعنادا ، وراموا قتله وصلبه ، فصانه الله تعالى من ذلك ورفَعه إليه وطهَّره منهم ، فأوقعوا القتل والصلب على شِبْهِهِ وهم يظنون أنه رسولُ اللهِ عيسى ﷺ ، فانتقم الله تعالى منهم ودمَّر عليهم أعظم تدمير ، ولَزِمَهُمْ كلَّهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح كما لَزِمَ النصارى معهم حكمَ الكفر بتكذيبهم بمحمد ﷺ .

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سِفالٍ ونقصٍ إلى أن قطَّعهم الله تعالى في الأرض أمما ، ومزَّقهم كل ممزق ، وسلَبهم عِزَّهم وملكهم ، فلم يقُم لهم بعد ذلك مُلكٌ ، فلما بعث الله تعالى محمدا ﷺ فكفروا به وكذبوه **أتم عليهم غضبَه ودمرهم غاية التدمير** ، وألزمهم ذلا وصَغارًا[1] لا يُرفعُ عنهم إلى أن ينزلَ أخوه المسيح من السماء ، فيستأصلَ شأفتهم ويُطهِّر الأرض منهم ومن عُبَّاد الصليب ، قال تعالى ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ .

فالغضب الأول بسبب كفرهم بالمسيح ، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما.[2]

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة أن ألقى إليهم أن الرب سبحانه وتعالى محجور عليه[3] في نسخ الشرائع ، فحَجروا عليه أن يفعلَ ما

---

[1] الصَّغار هو الذل. انظر «النهاية».

[2] ولهذا سمى الشيخ ابن القيم رحمه الله أمة اليهود بالأمة الغضبية.

[3] الحَجْر هو المنع من التصرف. انظر «النهاية».

يشاء ويحكمَ ما يريد ، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية تُرسًا[1] لهم في جحد نبوة رسول الله ﷺ ، وقرَّروا ذلك بأن النسخ يستلزم البَداء[2] ، وهو على الله تعالى مُحال.

وقد أَكْذبهم الله سبحانه في نص التوراة كما أكذبهم في القرآن ، قال الله تعالى ﴿كلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾.

فتضمَّنت هذه الآيات بيان كذِبِهم صريحا في إبطال النسخ ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كلَّه كان حِلاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة سِوى ما حرَّم إسرائيل على نفسه منه ، ومعلومٌ أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملَّته ، وأن الذي كان لهم حلالا إنما كان بإحلال الله تعالى له على لسانِ إسرائيلَ والأنبياءِ بعده إلى حين نزول التوراة ، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلالا لبني إسرائيل ، وهذا محضُ النسخ.

وقوله تعالى ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ ، متعلقٌ بقوله ﴿كان حلا لبني إسرائيل﴾ ، أي كان لهم حلالا قبل نُزول التوراة وهم يعلمون ذلك ، ثم قال تعالى ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ ، هل تجدون فيها أن

[1] الترس في الأصل آلة مستديرة يتوقى بها الجندي ضربات الأعداء في الحرب. انظر «المعجم الوسيط».

[2] البداء هو ظهور الرأي وبدُوِّه بعد أن لم يكن ، واليهود يرُدُّون نسخ الشرائع الشابقة بشريعة الإسلام زعما منهم أن ذلك يستلزم أن الله بدا له هذا الرأي ولم يكن يعلمه من قبل. انظر «التعريفات» للجرجاني.

إسرائيل حرَّم على نفسه ما حرَّمَته التوراة عليكم ، أم تجدون فيها تحريم ما خصَّه بالتحريم ، وهو لحوم الإبل وألبانُها خاصة؟

وإذا كان إنما حرَّم هذا وحده ، وكان ما سواه حلالا له ولِبَنيه ، وقد حَرَّمت التوراة كثيرا منه ؛ ظَهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجرِ على الله تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين وما أوردوه.

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حَرَّمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والأفعال والأقوال ، وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية[1] ، فإن هذه المناظرة ضعيفة جدا ، فإن القوم لم يُنكروا رفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب ، إذ هذا شأنُ كل الشرائع ، وإنما أنكروا تغيير ما أباحه الله تعالى فيجعلُه حراما ، أو تحليل ما كان حرَّمه فيجعلُه مباحا ، وأما رفع البراءة والاستصحاب[2] فلم يُنكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تُقِرُّون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا ، فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة؟

فيقال لهم: فهل رفَعَتْ التوراةُ شيئا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟

---

[1] أي البراءة من التحريم والإيجاب حتى ينص الشرع بذلك ، كالبراءة من إيجاب الزكاة إلى أن ورد الشرع بإيجابها ، والبراءة من تحريم الخمر إلى أن ورد الشرع بتحريمها.

[2] الاستصحاب فى اصطلاح الاصوليين هو استبقاءُ حكمٍ ثبت فى الزمن الماضي للزمن الحاضر والمستقبل ما لم يطرأ الحدَث عليه ، سواء كان الحكم حراما أو حلالا ، فكأن الحكم بقِي مستصحبا من الماضي إلى الحاضر ثم إلى المستقبل ، وضده رفع البراءة ، أي رفع بقاء الحكم ، وكلاهما لا يقول به أحد من أهل الملل –كما قال ابن القيم– ، فإنه لا بد كلما استجدت شريعة أن تحرِّم أمور كانت حلالا وتحلِّل أمور كانت حراما. انظر «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (٢/٩٧٤) ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض ، للشوكاني رحمه الله.

فإن قالوا: لم تَرفع شيئا من أحكام تلك الشرائع فقد جاهروا بالكذب والبَهت ، وإن قالوا: قد رَفَعت بعض الشرائع المتقدمة فقد أقرُّوا بالنسخ قطعا.

وأيضا فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى عليه السلام؟

فإن قالوا (نعم) قلنا: أليس في التوراة أنَّ من مسَّ عظم ميتٍ أو وطِئ قبرا أو حضر ميتا عند موته فإنه يصير من النجاسة بحالٍ لا مخرج له منها إلا رمادَ البقرة التي كان الإمام الهاروني[1] يَحرِقها؟

فلا يمكنهم إنكار ذلك.

فيقال لهم: فهل أنتم اليوم على ذلك؟

فإن قالوا: (لا نقدِر عليه) ؛ فيقال لهم: فلم جعلتم أنَّ من لمس العظمَ والقبرَ والميتَ طاهرا[2] يصلح للصلاة ، والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا: لأنا عَدِمنا أسباب الطهارة وهي رماد البقرة ، وعَدِمنا الإمام المُطهِّر المستغفر) ؛ فيقال لهم: فهل أغناكم عدمُهُ عن فعله أو لم يغنكم؟

فإن قالوا: (أغنانا عَدمُه عن فعله ؛ قيل لهم: فقد تبدَّل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التَّعذر) ؛ فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعي بنَسخه لمصلحة النسخ ، فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام فلا ريب أن الشيء يكون مصلحةً في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرى ، كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة

---

[1] يعني بالهاروني من كان من نسل هارون عليه السلام.

[2] أي يكون طاهرا ، يمكنه أن يصلي.

آدم عليه السلام ثم صار مفسدة في سائر الشرائع ، وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحةً في شريعة إبراهيم عليه السلام ومَن قبلَه ، مفسدةً[١] في شريعة موسى عليه السلام ، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام ومنعتم تعليلها بها فالأمر حينئذ أظهر ، فإنه سبحانه يُحلل ما يشاء ويُحرم ما يشاء ، والتحليل والتحريم تبعٌ لمجرد مشيئته ، لا يُسأل عما يفعل.

وإن قلتم: لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطُّهور الذي كان عليه أسلافنا ؛ فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبدا ، ولا سبيل لكم إلى حصول الطهارة.

فإن قالوا: (نَعم ، الأمر كذلك) ؛ قيل لهم: فإذا كنتم أنجاسا على مقتضى أصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالا تخرجون فيه إلى حَدٍّ لو أن أحدكم لَمَس ثوبه ثوب المرأة نجَّستموه مع ثوبه؟

فإن قلتم: (ذلك من أحكام التوراة) ؛ قيل لكم: أليس في التوراة أن ذلك يُراد به الطهارة ، فإذا كانت الطهارة قد تعذَّرت عندكم ، والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل ؛ فهي إذًا أشدُّ من نجاسة الحيض.

ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم ، ولا تخشون من لمسها ولا الثوب الذي تلمَسُه ، فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس في التوراة.

---

[١] التقدير: وكان مفسدةٌ في شريعة موسى عليه السلام.

فصلٌ ، قالت الأمة الغضبية: التوراة قد حظَرت أمورا كانت مباحة مِن قبل ولم تأت بإباحة محظور ، والنسخ الذي نُنكره ونمنعُ منه هو ما أوجب إباحةَ محظور ، لأن تحريم الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسَدة ، فإذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومُقرِّراتها ، فإذا جاء مَن أباحه علِمنا بإباحته المُفسِدة أنه غيرُ نبي ، بخلافِ تحريم ما كان مباحا ، فإنَّا نكون متَعبِّدين بتحريمه.

قالوا: وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرمته التوراة ، مع أنه إنما حُرِّم لما فيه من المفسدة.

فهذه النكتة هي التي تعتمد عليها الأمة الغضبية ويتلقَّاها خالِفٌ منهم عن سالفٍ ، والمُتكلمون لم يُشفوهم في جوابها[1] ، وإنما أطالوا معهم الكلام في رفع البراءة الأصلية بالشرائع وفي نسخ الإباحة بالتحريم.

ولَعَمرُ الله إنه لمما يُبطِل شبهتهم ، لأنَّ رفع البراءة الأصلية ورفع الإباحة بالتحريم هو تغييرٌ لما كان عليه الحكم الاستصحابي أو الشرعي بحكم آخر لمصلحةٍ اقتضت تغييرَه ، ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين تغيير الإباحة بالتحريم أو تغيير التحريم بالإباحة.

والشبهة التي عَرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر ، فإن إباحةَ الشيء في الشريعة تابعٌ لعدم مفسدته ، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته ، فإذا حرَّمته الشريعة الأخرى وجب قطعا أن يكون تحريمُه فيها هو المصلحة كما كان إباحتُه في الشريعة الأولى هي

[1] أي: لم يعطوهم جوابا شافيا.

المصلحة ، فإنْ تضمَّن إباحة المحرم في الشريعة الأولى إباحة المفاسد – وحاشا لله – تَضمَّن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح ، وكلاهما باطل قطعا.

فإذا جاز أن تأتي شريعة التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ومن تقدَّمه يستبيحُه ؛ فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظورا.

وهذه الشبهة الباطلة الداحضة هي التي رَدَّت بها الأمة الغضبية نُبُوة سيدنا محمد ﷺ ، هي بعينها التي ردَّ بها أسلافُهم نبوةَ المسيح ، وتوارثوها كافرا عن كافر ، وقالوا لمحمد ﷺ كما قال أسلافهم للمسيح: لا نُقِرُّ بنبوةِ مَن غَيَّر شريعة التوراة!

فيقال لهم: فكيف أقررتم لموسى بالنبوة وقد جاء بتغيير بعضِ شرائعِ من تقدَّمه ، فإنْ قَدَحَ ذلك[1] في المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام قَدَحَ في موسى ، فلا تقدحون في نبوتهما بقادحٍ إلا ومثلَه في نبوة موسى سواء ، كما أنكم لا تُثبتون نبوة موسى ببرهان إلا وأضعافُه شاهد على نبوة محمد ﷺ ، فمن أبينِ المحال أن يكون موسى رسولا صادقا ومحمدٌ ليس برسول ، أو يكون المسيح رسولا ومحمد ﷺ ليس برسول.

ويقال للأمة الغضبية أيضا: لا يخلو المُحرَّم ؛ إما أن يكون تحريمه لعينِه وذاتِه بحيث تمتنع إباحته في زمان من الأزمنة ، وإما أن يكون تحريمه لما تضمَّنه من المفسدة في زمانٍ دون زمانٍ ، ومكانٍ دون مكانٍ ، وحالٍ دون حالٍ ، فإن كان الأول ؛ لزِم أن يكون ما حرَّمَته التوراة محرما على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان ، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء صلوات الله

[1] أي تغيير الشرائع.

وسلامه عليهم أجمعين ، وإن كان الثاني ؛ ثبتَ أن التحريمَ والإباحةَ تابعان للمصالح ، وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال ، فيكون الشيء الواحد حراما في ملة دون ملة ، وفي وقت دون وقت ، وفي مكان دون مكان ، وفي حال دون حال ، وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع ، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غيرُ ذلك.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لِعينه لكان حراما على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟

وكذلك ما حرَّمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها ؛ لو كان حراما لعينِهِ وذاتِهِ لَوَجَبَ تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

وإذا كان الربُّ تعالى لا حَجْرَ عليه ، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ويبتلي عباده بما يشاء ويَحكم ولا يُحكم عليه ، فما الذي يَحيلُ[1] عليه ويمنعه أن يأمرَ أمةً بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهى أمةً أخرى عنه ، أو يُحرِّم محرَّما على أمة ويبيحه لأمةٍ أخرى ، بل أيُّ شيء يمنعُهُ سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين بحسب المصلحة ، وقد بيَّن ذلك سبحانه وتعالى بقوله ﴿ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾؟

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته ومُلكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخَ ما يشاء ويُثبتَ ما يشاء ، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويُثبتْ ، فهكذا أحكامه الدينية الأَمرية ينسخ منها ما يشاء

[1] أي يستحيل.

ويُثبت منها ما يشاء ، فمِن أكفر الكفر وأظلم الظلم أن يُعارَض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى ، وتُدفع نبوتُه ، وتُجحد رسالتُه ، بكونه أتى بإباحة بعضِ ما كان محرما على من قبله ، أو بتحريمِ بعض ما كان مباحا لهم ، وبالله التوفيق ، يُضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تَحْجُرُ على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه ، وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر ما هم عليه ، وتمسَّكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم!

فمن ذلك أنهم يقولون في صلواتهم ما ترجَمتُه هكذا: اللهم اضرب ببوقٍ عظيمَ لفِيفَنا[1] ، واقبضنا جميعا من أربعة أقطار الأرض إلى قُدسك ، سبحانك يا جامع شتات قوم إسرائيل.

ويقولون كل يوم ما ترجَمته هكذا: أُردد حكامنا كالأوَّلين ، ومُشيرينا كالابتداء ، وابن أورشليم قرية قُدسك في أيامنا ، وأعِزَّنا ببنيانها ، سبحانك يا باني يورشليم.

فهذا قولهم في صلاتهم ، مع علمهم بأن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولا شيئا من ذلك ، ولكنها فصول لفَّقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامهم – كصوم إحراق بيت المقدس ، وصوم حصبا ، وصوم كَدَلِيا – التي جعلوها فرضا ، لم يصمها موسى ولا يوشع بن نون ، وكذلك صوم صَلب هامان ، ليس شيء من ذلك في التوراة ، وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

[1] اللفيف هو الجمع من الناس. انظر «المعجم الوسيط».

هذا مع أنه في التوراة ما ترجَمته: **لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئا ولا تَنقُصوا منه شيئا.**

وقد تضمَّنت التوراة أوامر كثيرة جدا هم مجمعون على تعطيلها وإلغائها ، فإما أن تكون منسوخة بنصوص أخرى من التوراة ، أو بنقل صحيح عن موسى عليه السلام ، أو باجتهاد علمائهم وأحبارهم ، وعلى التقادير الثلاثة فقد بطلت شبهتهم في إنكار النسخ.

ثم من العجب أن أكثر تلك الأوامر التي هم مُجمعون على عدم القول بها والعمل بها إنما يستنِدون فيها إلى أقوال علمائهم وآرائهم ، وقد اتفقوا على تعطيلِ الرجم للزاني ، وهو نصُّ التوراة ، وتعطيلِ أحكام كثيرة منصوصة في التوراة.

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم يزعمون أن الفقهاء إذا أحلُّوا لهم الشيء صار حلالا ، وإذا حرَّموه صار حراما ، وإن كان نصُّ التوراة بخلافه ، وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاءوا من شريعة التوراة ، فحجَّروا على الرب تعالى وتقدَّس أن ينسخَ ما يريد من شريعته وجوَّزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم ، كما تكبَّر إبليسُ أن يسجد لآدم ، ورأى أن ذلك يَغُضُّ منه[1] ، ثم رضي أن يكون قوَّادًا[2] لكل عاص وفاسق.

وكما أنِفَ عُبَّاد الأصنام أن يكون النبي المرسل إليهم بَشرا ، ثم رضوا أن يكون إلٰهُهم ومعبودُهم حَجَرا.

---

[1] أي يُنقِصُ من قدره.

[2] القوَّاد في الأصل هو الساعي بين الرجل والمرأة ليوقعهما في الفجور ، واستعيرت الكلمة هنا فوُصِف إبليس بها ، إذ هو يسعى بين بني آدم وبين المعاصي عموما. انظر «المعجم الوسيط».

وكما نزَّهت النصارى بَتارِكهم[1] عن الولد والصاحبة ، ولم يتحاشوا من نِسبة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى.

وكما نزَّهت الفرعونية من الجهمية الربَّ سبحانه أن يكون مستوِيا على عرشه – لئلا يَلزم الحصر – ثم جعلوه سبحانه في الآبار والحانات وأجواف الحيوانات.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهم ما شدَّدوه على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس له أصلٌ عن موسى عليه السلام ولا هو في التوراة ، وإنما هو من أوضاع الحخاميم[2] وآرائهم ، وهم فقهاؤهم.

ولقد كان لهذه الأمة في قديم الزمان بالشام والعراق والمدائن مدارِس وفقهاء كثيرون ، وذلك في زمن دولة البابِليِّين والفرس ، ودولة اليونان والروم ، حتى اجتمع فقهاؤهم في بعض تلك الدول على تأليف «المِشْنا» و «التلمود».

فأما «المِشْنا» فهو الكتاب الأصغر ومبلغ حجمِه نحو ثمان مئة ورقة ، وأما «التلمود» فهو الكتاب الأكبر ، ومبلغه نحو نصف حِمْلِ بغلٍ لكثرته ، ولم يكن الفقهاءُ الذين ألَّفوه في عصر واحد ، وإنما ألفوه جيلا بعد جيل ، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف ، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه ، وأنَّ في الزيادات المتأخرة ما يُناقض أوائلَ هذا التأليف ؛ علِموا أنهم إن لم يَقطعوا ذلك ويَمنعوا من الزيادة فيه أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سَدُّهُ ، قطعوا[3] الزيادة فيه ومنعوا منها ، وحظَروا على الفقهاء الزيادة فيه وإضافة

---

[1] البتارك جمع بترك ويسمى البطريق والبطريك ، هو رئيس رؤساء الأساقفة ، ومُقَدَّم النصارى. انظر «المعجم الوسيط».

[2] الحخاميم جمع حاخام ، وهو فقيه اليهود كما بيَّن الشيخ بعده.

[3] تقدير الكلام: لذلك قطعوا الزيادة فيه.

شيء آخر إليه ، وحرَّموا من يضيفُ إليه شيئا آخر ، فوقَفَ[1] على ذلك المقدار.

وكانت أئمتُهم قد حرَّموا عليهم في هٰذين الكتابين مؤاكلة الأجانب ، وهم من كان على غير ملتهم ، وحظَروا عليهم أكل اللحمان من ذبيحة من لم يكن على دينهم ، لأن علماءهم علِموا أن دينهم لا يبقى في هذه الخلوة[2] مع كونهم تحت الذل والعبودية إلا أن يصُدوهم عن مخالطة من هو على غير ملتهم ، فحرَّموا عليهم الأكلُ من ذبائحهم ومُناكحتهم ، ولم يُمْكِنْهُم تقريرَ ذلك إلا بحجة يبتدعونها من أنفسهم ويكذبون بها على الله تعالى ، لأن التوراة إنما حَرَّمت عليهم مناكحة غيرهم من الأمم لئلا يُوافقوا الأزواج في عبادة الأصنام والشرك بالله ، وحَرَّمَ عليهم في التوراة أكلَ ذبائح الأمم التي يذبحونها قربانا إلى الأصنام لأنه قد سُمِّيَ عليها اسمُ غيرِ الله تعالى ، فأما الذبائح التي لم تُذبح قربانا للأصنام فلم تَنطق التوراة بتحريمها ، وإنما نطقت بإباحة الأكل من أيدي غيرهم من الأمم ، وموسى عليه السلام إنما نهاهم عن مناكحة عُبَّاد الأصنام وأكلِ ما يذبحونها على اسمها ، فما بالُ هؤلاء لا يأكلون من ذبائح المسلمين وهم لا يذبحون للأصنام ولا يذكرون اسمها عليها؟!

فلما نظر أئمتهم إلى أن التوراة غيرُ ناطقةٍ بتحريمِ مآكل الأمم عليهم إلا عُبَّاد الأصنام ، وأن التوراة قد صرحت بأن تحريمَ مؤاكلتِهم ومخالطتِهم

[1] أي وقَف الكتاب.

[2] الخلوة هي الحال التي يكون فيها صاحبها غير مختلط بالناس ، والمقصود هنا أن اليهود كانوا يريدون الحفاظ على دينهم وعدم الاختلاط بالأمم الأخرى لئلا يدخل في عقيدتهم ما ليس منها.

خوفَ[1] استدارجِ المخالطةِ إلى المناكحة ، وأن مناكحتَهم إنما مُنِعَ منها خوفَ استتباعها إلى الانتقال إلى أديانهم وعبادة أوثانهم ، ووجدوا جميع هذا واضحا في التوراة ؛ اختلقوا كتابا في علم الذِّباحة ، ووضعوا فيه من التشديد والآصار والأغلال ما شغلوهم به عمَّا هم فيه من الذُّل والمشقة ، وذلك أنهم أمروهم أن ينفخوا الرئة حتى يملؤوها هواء ويتأملونها ، هل يخرج الهواء من ثقبٍ منها أم لا ، فإن خرج منها الهواء حرَّموها ، وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقا ببعضٍ لم يأكلوه ، وأمروا الذي يتفقَّد الذبيحة أن يُدخِل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه ، فإن وجد القلبَ ملتصقا إلى الظهرِ أو أحد الجانبين - ولو كان الالتصاق بعرقٍ دقيقٍ كالشعرة - حرَّموه ولم يأكلوه ، وسمَّوه «طريفا» ، يعنون بذلك أنه نجسٌ وأكله حرامٌ ، وهذه التسمية هي أصلُ بلائهم ، وذلك أن التوراة حرَّمت عليهم أكل «الطريفا» ، و «الطريفا» هي الفريسة التي يفترسها الأسد أو الذئب أو غيرهما من السباع ، وهو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى ﴿وما أكل السَّبُع﴾ ، والدليل على ذلك أنه قال في التوراة: (ولحمًا في الصحراء فريسةً لا تأكلوه ، وللكلب ألقوه).

وأصلُ لفظ «طريفا» طوارف ، وقد جاءت هذه اللفظة في التوراة في قصة يوسف عليه السلام لما جاء إخوته على قميصه بدم كذب ، وزعموا أن الذئب افترسه ، وقال في التوراة: (ولحما في الصحراء فريسةً لا تأكلوا) ، والفريسة إنما توجد غالبا في الصحراء.

[1] تقدير الكلام: لخوف.

وكان سبب نزول هذا عليهم أنهم كانوا ذوِي أخبية[1] يسكنون البر ، لأنهم مكثوا يترددون في البر والتِّيه أربعين سنة ، كانوا لا يجدون طعاما إلا المنَّ والسلوى ، وهو طائر صغير يشبه السَّمان ، وفيه من الخاصِّية أن أكل لحمه يُليِّن القلب ويَذهب بالحُزون والقساوة ، فإنَّ هذا الطائر يموت إذا سمع صوت الرعد ، كما أن الخُطَّاف[2] يقتله البرد ، فألهمه الله سبحانه وتعالى أن يَسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوانِ المطر والرعد ، فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض ، فجلب الله تعالى إليهم هذا الطائر لينتفعوا به ويكون اغتذاؤهم به كالدواء ، لِغِلَظِ قلوبهم وقسوتها.

والمقصود أن مشايخهم تَعَدَّوا في تفسير «الطريفا» عن موضوعها وما أُريد بها ، وكذلك فقهاؤهم اختلقوا من أنفسهم هَذَيانات وخُرافات تتعلق بالرئة والقلب ، وقالوا: (ما كان من الذبائح سليما من تلك الشروط فهو دخنا) ، ومعنى هذه اللفظة[3] أنه طاهر ، وما كان خارجا عن هذه الشروط فهو «طريفا» ، وتفسيرها أنه حرام.

قالوا: ومعنى نص التوراة (ولحمًا فريسةً في الصحراء لا تأكلوه ، وللكلب ألقوه) ؛ أي إنكم إذا ذبحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها ، بل تبيعونها على من ليس من أهل ملتكم.

وفسَّروا قولَه (للكلب ألقوه) أي لمن ليس من أهل ملتكم فأطعِموه وبِيعوه ، وهم أحق بهذا اللقب وأشبه بالكلاب.

---

[1] أخبية جمع خِباء ، وهو البيت المصنوع من وبر أو شعر أو صوف. انظر «المعجم الوسيط».

[2] الخُطَّاف نوع من الطيور. انظر «المعجم الوسيط».

[3] أي: دخنا.

ثم إن هذه الأمة الغضبية فرقتان ؛ **إحداهما** عرفوا أن أولئك السلف الذين ألَّفوا «المِشْنا» و «التلمود» – وهم فقهاءِ اليهود – كذبوا على الله وعلى موسى النبي ، وهم أصحاب حماقات وتنطُّع ودعاوى كاذبة ، يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من تلك المسائل يوحي الله تعالى إليهم بصوت يسمعه جمهورُهم يقول: (الحقُّ في هذه المسألة مع فلان) ، ويسمُّون هذا الصوت «بث قُول» ، فلما نظرت اليهود القرَّاؤون – وهم أصحاب عانان وبنيامين – إلى هذه المَحالات[1] الشنيعة وهذا الافتراء الفاحش والكذِب البارد ؛ انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء وعن كل من يقول بمقالاتهم ، وكذَّبوهم في كل ما افتروا على الله ، وزعموا أنه لا يجوز قَبول شيء من أقوالهم ، حيث ادعوا أن الله تعالى كان يُوحي إليهم كما يُوحي إلى الأنبياء.

وأما تلك التُّرهات التي ألفها الحخاميم – وهم فقهاؤهم – ونسبوها إلى التوراة وإلى موسى ؛ فإن القرَّائين اطَّرحوها كلها وألغوها ، ولم يُحرِّموا شيئا من الذبائح التي يتولون ذبيحتها البتة ، ولم يُحرِّموا سوى لحم الجَدْي بلبنِ أمه فقط ، مراعاةً لنص التوراة: (لا يُنضجُ الجدي بلبن أمه) ، وليسوا بأصحاب قياس بل أصحاب ظاهر فقط.

وأما **الفرقة الثانية** فهم الربانيون ، وهم أصحاب القياس ، وهم أكثر عددا من القرَّائين ، وفيهم الحخاميم المفترون على الله تعالى الكذب ، الذين زعموا أن الله تعالى كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت الذي يسمونه «بث قُول».

[1] أي الأمور المستحيلة.

وهذه الطائفة أشدُّ اليهود عداوة لغيرهم من الأمم ، لأن حخاميمهم أوهموهم أن المأكولات إنما تَحِلُّ للناس إن استعملوا فيها هذا العِلم الذي نسبوه إلى موسى عليه السلام وإلى الله تعالى ، وأن سائر الأمم لا يعرفون هذا ، وأنهم إنما شرفهم الله تعالى بهذا وأمثال ذلك من التُّرهات ، فصار أحدهم ينظرُ إلى من ليس على مذهبه وملته كما ينظر إلى الحيوان البهيم ، وينظرُ إلى مآكل الأمم وذبائحهم كما ينظر إلى العَذِرة[1] ، وهذا من كيد الشيطان لهم ولعبِهِ بهم ، فإن الحخاميم قصدوا بذلك المبالغة في مخالفتهم الأمم والإزراء عليهم ونسبتِهم إلى قلة العلم ، وأنهم اختصوا دون الأمم بهذه الآصار والأغلال والتشديدات.

وكلما كان الحخاميم فيهم أكثرَ تكلفا وأشدَّ إصرا وأكثرَ تحريما ؛ قالوا: هذا هو العالم الرباني!

ومما دعاهم إلى التشديد والتضييق أنهم مُبدَّدون في شرق الأرض وغربها ، فما من جماعة منهم في بلدة إلا وإذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يُظهر لهم الخشونةَ في دينهم والمبالغةَ في الاحتياط ؛ فإن كان من المتفقِّهة فهو يَشرع في إنكار أشياء عليهم ، ويوهمهم التنزه عمَّا هم عليهم[2] ، وينسِبهم إلى قلة الدين ، وينسِب ما يُنكره عليهم إلى مشايخه وأهل بلده ، ويكون في أكثر تلك الأشياء كاذبا ، وقصده بذلك إما الرياسة عليهم وإما تحصيل بعض مآربه منهم ، ولا سيما إن أراد المُقام عندهم ، فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم ولا من ذبائحهم ، ويتأمل

---

[1] العَـذِرة هي ما يخرج من الإنسان من الغائط.

[2] أي يوهمهم أنه ينبغي عليهم التنزه عما هم فيه من الحال الدينية ، وكلمة (عليهم) مثبتة في نسختي عزير وعلي ، ولعله سبق قلم من ابن القيم رحمه الله ، فإن الأشبه بالسياق كلمة (عليه) ، والله أعلم.

سِكِّين ذبَّاحهم[1] ، ويُنكر عليهم بعضَ أمره ويقول: (أنا لا آكلُ إلا من ذبيحة يدي) ، فتراهم معه في عذاب ، لا يزال ينكر عليهم المباح ، ويوهمهم تحريمه بأشياء يخترعها حتى لا يَشُكُّون في ذلك ، فإن قدِم عليهم قادم آخر فخاف المقيمُ أن ينتقضَ عليه القادم[2] ؛ تلقَّاه وأكرمه وسعى في موافقته وتصديقه ، فيستحسنُ ما فعله الأول ، ويقول لهم: (لقد عظَّم الله تعالى ثواب فلان) ، إذْ قوَّى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة ، وشدَّ سياج الشرع عندهم ، وإذا لقيه يُظهر من مدحه وشكره والدعاءِ له ما يؤكد أمره.

وإن كان القادم الثاني منكِرا لما جاء به الأول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع ، وينسِبونه إما إلى الجهل وإما إلى رقة الدين ، لأنهم يعتقدون أن تضييق المعيشة وتحريم الحلال هو المبالغة في الدين.

وهم أبدا يعتقدون الصواب والحق مع من يُشدِّد ويُضيِّق عليهم ، هذا إن كان القادم من فقهائهم.

فأما إن كانوا من عُبَّادهم وأحبارهم فهناك ترى العَجب العُجاب من الناموس[3] الذي يعتمده والسُّنن التي يُحْدِثها ويُلحقها بالفرائض ، فتراهم مُسلِّمين له منقادين ، وهو يَحْتَلِبُ دَرَّهُمْ[4] ، ويَجْتَلِبُ دِرهمَهم ، حتى إذا بلغه أن يهوديا جلس على قارعة الطريق يوم السبت أو اشترى لبنا من مسلم ثَلَبَهُ[5] وسبَّه في مجمع اليهود ، وأباح عرضه ونسبه إلى قلة الدين.

---

[1] أي الجزار.

[2] أي يُفسِد عليه ما فعله.

[3] كلمة الناموس لها عدة معاني ، وتعني في هذا السياق القانون والشريعة. انظر «المعجم الوسيط».

[4] يحتلب درَّهم أي يحتلب البهيمة التي تدر حليبا كثيرا ، كناقة ونحوها ، يعني بذلك أنه يأخذ أنفس ما عندهم من الخير.

[5] الثلب هو العيب والتنقص. انظر «المعجم الوسيط».

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي مما أُمروا به أو نُهوا عنه شاقًّا عليهم طلبوا التخلص منه بوجوه الحيل ، فإن أَعيتهم الحيلة قالوا: هذا كان علينا لما كان لنا المُلك والرياسة.

فمن ذلك أنهم أُمِروا إذا أقام أَخَوان في موضع واحد ومات أحدُهما ولم يُعْقِب ولدا ؛ فلا تخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي ، بل وَلَدَ حَمِيِّها[1] ينكحها ، وأولُ ولدٍ يُولِدُها يُنسبُ إلى أخيه الدارج[2] ، فإن أبى أن ينكِحها خرجت مشتكية منه إلى مشيخةِ قومه تقول: (قد أبى ابن حَمِي أن يَستبقي اسما لأخيه في إسرائيل ولم يُرِد نكاحي) ، فيُحضرُه الحاكم هناك ويُكلِّفُه أن يقف ويقول: (ما أردتُ نكاحها) ، فتتناولُ المرأة نَعلهُ فتخرجهُ من رجله وتمسِكُه[3] بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه: (كذا فليُصنَع بالرَّجل الذي لا يبني بيت أخيه) ، ويُدعى فيما بعد بـ «المخلوعِ النَّعل» ، ويُنبَزُ[4] بنوه بـ «بني مخلوع النعل».

هذا كلُّه مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة ، وفيه حكمة مُلجِئةٌ للرجل إلى نكاح زوجة أخيه الدارج ، فإنه إذا علم أن ذلك ينالُه إن لم ينكِحْها آثر نكاحها عليه ، فإن كان مبغضا لها ، زَهِدًا في نكاحها ، أو كانت هي زاهدة في نكاحه مبغضة له ؛ استخرج لهما الفقهاء حيلة يَتخلص بها منها وتتخلص منه ، فيُلزمونها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشايخهم ، ويُلقِّنونها أن تقول: (أَبَى ابن حَمي أن يقيم لأخيه اسما في إسرائيل ، لم يُرد

---

[1] حميُّها أي حَموُها وهو أخو زوجها.

[2] أخيه الدارج أي الميت. انظر «لسان العرب».

[3] أي الرُّجُل.

[4] يُنبِز أي يُلقب. انظر «لسان العرب».

نكاحي) ، فيُلزمونها بالكذب عليه لأنه أراد نكاحها وكرِهته ، فإذا لقَّنوها هذه الألفاظ قالتها ، فيأمرونه بالكذب وأن يقوم ويقول: (ما أردتُ نكاحها) ، ولعلَّ ذلك سؤلُه وأمنيتُه ، فيأمرونه بأن يكذب ، ولم يكفِهم أن كذَبوا عليه وألزموه أن يكذِب حتى سلَّطوها على الإخراق به[1] والبُصاق في وجهه ، ويُسمون هذه المسألة «البياما والحالوس».

وقد تقدم من التنبيه على حيلهم في استباحة محارم الله تعالى بعضُ ما فيه كفاية ، فالقوم بيتُ الحيل والمكر والخبث.

وقد كانوا يتنوّعون في عهد رسول الله ﷺ بأنواع الحيل والكيد والمكر عليه وعلى أصحابه ، ويرُدُّ الله سبحانه وتعالى ذلك كله عليهم ، فتحيَّلوا عليه وأرادوا قتله مرارا ، والله تعالى يُنجّيه من كيدهم ، فتحيّلوا عليه وصعدوا فوق سطحٍ وأخذوا رحًا[2] أرادوا طرحها عليه وهو جالس في ظل حائط ، فأتاه الوحيُ ، فقام منصرفا ، وأخذ في حربهم وإجلائهم.

ومكروا به وظاهروا عليه أعدائه من المشركين ، فظفَّره الله تعالى بهم.

ومكروا به وأخذوا في جمع العدو له ، فظفَّر الله تعالى برئيسهم فقتله.

ومكروا به وأرادوا قتله بالسُّم ، فأعلمه الله تعالى به ونجاه منه.

ومكروا به وسحروه ، حتى كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله ، فشفاه الله تعالى وخلَّصه.

ومكروا به في قولهم ﴿آمِنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ ، يريدون بذلك تشكيك المسلمين في نبوته ، فإنهم إذا أسلموا أوَّل

---

[1] الإخراق به أي الكذب عليه. انظر «المعجم الوسيط».

[2] الرحا: أداة يُطحن بها. انظر «المعجم الوسيط».

النهار اطمأن المسلمون إليهم ، وقالوا: (قد اتَّبعوا الحق وظهرت لهم أدلته) ، فيكفرون آخر النهار ويجحدون نبوته ويقولون: (لَمْ نقصد إلا الحق واتِّباعه ، فلما تبين لنا أنه ليس به ؛ رجعنا عن الإيمان به) ، وهذا من أعظم خُبثهم ومكرهم.

ولم يزالوا مُوضِعين[١] مجتهدين في المكر والخبث إلى أن أخزاهم الله بيدِ رسوله وأتباعه ﷺ ورضي عنهم أعظم الخزي ، ومزَّقهم كل ممزق ، وشتَّت شملهم كل مشتَّت.

وكانوا يُعاهدونه ﷺ ويُصالحونه ، فإذا خرج لحربِ عدوه نقضوا عهده.

ولما سَلب الله تعالى هذه الأمةَ مُلكَها وعِزَّها ، وأذلها وقطَّعهم في الأرض ؛ **انتقلوا من التدبير بالقُدرة والسلطان إلى التدبير بالمكر والدهاء والخداع** ، وكذلك كل عاجز جبان ، سلطانُه في مكره وخداعه وبَهْتِه وكذِبه ، ولذلك كان النساء بيت المكر والخداع والكذب والخيانة ، كما قال الله تعالى عن شاهِدِ يوسف عليه السلام أنه[٢] قال ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾.

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة أنهم يُمثِّلون أنفسهم بعناقيد الكَرْم[٣] ، وسائرَ الأمم بالشوك المحيط بأعالي حيطان الكرْم ، وهذا من غاية جهلهم وسَفَهِهم ، فإن المعتنين بمصالح الكرْم إنما يَجعلون على أعالي

[١] مُوضِعين أي مسرعين ، من الإيضاع وهو السرعة ، ومنه قول النبي ﷺ في حجته: عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع.

[٢] في نسخة عزير (أن) ، والمثبت من نسخة علي.

[٣] الكرْم هو العنب.

حيطانه الشوكَ حفظًا له وحِياطةً وصيانةً ، ولسنا نرى لليهود من سائر الأمم إلا الضرر والذل والصَّغار ، كما يفعل الناسُ بالشوك.

ومن تلاعبه بهم أنهم ينتظرون قائما من وَلَدِ داودَ النبي إذا حرَّك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ، وأن هذا المُنتظَر - بزعمهم - هو المسيح الذي وُعِدوا به ، وهم في **الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال**[1] ، فهم أكثرُ أتباعِه ، وإلا فمسيحُ الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام يقتلُهم ، ولا يُبقي منهم أحدا.

والأمم الثلاثُ تنتظر منتَظَرًا يخرج في آخر الزمان ، فإنهم وُعِدوا به في كل ملة ، والمسلمون ينتظرون نزولَ المسيحِ عيسى ابن مريم من السماء لكسر الصليب وقتل الخنزير وقتل أعدائِه من اليهود وعُبَّادِه من النصارى ، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة[2] ، يملأُ الأرض عدلا كما مُلئت جورا وظلما.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية أنهم في العشر الأُوَلِ من الشهر الأَوَّلِ من كل سنة يقولون في صلاتهم: (كم تقول الأمم: أين إلٰهُهم؟ انتبه ، كم تنام يا رب؟ **استيقظ من رقدتك)**[3].

وهؤلاء إنما أقدموا على هذه الكُفريات من شِدة ضجرهم من الذل والعبودية وانتظارِ فرج لا يزداد منهم إلا بُعدا ، فأوقعهم ذلك في الكفر

---

[1] جاء ذلك في الحديث الذي رواه مسلم (٢٩٤٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا. وأصبهان من مدن إيران ، وانظر للتوسع كتاب الشيخ الألباني رحمه الله «قصة المسيح الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام وقتلِه إياه».

[2] ورد في خروج المهدي عدة أحاديث ، نقل جملة منها الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٢٩ ، ٢٢٣٦ ، ٢٢٩٣ ، ٢٣٠٨).

[3] انظر الى قلة أدبهم مع الله تعالى وسوء توقيرهم له.

والتزندق الذي لا يَستحسنُه إلا أمثالهم ، وتجرأوا على الله سبحانه وتعالى بهذه المناجاة القبيحة ، كأنهم يَنخَونه[1] بذلك لينتخي لهم ويحمي لنفسه ، فكأنهم يُخبرونه سبحانه وتعالى بأنه قد اختار الخمول لنفسه ولأحبابه وأبناء أنبيائه ، فينتخَونه للنَّباهة واشتهار الصِّيت!

فترى أحدَهم إذا تلا هذه الكلماتِ في الصلاة يقشعرُّ جلدُه ، ولا يَشكُّ في أن هذه المناجاة تقع عند الله تعالى بموقع عظيم ، وأنها تؤثرُ فيه وتحركه وتهزُّه وتُنخِّيه.

ومن ذلك[2] أنهم ينسبون إلى الله سبحانه وتعالى الندم على ما يفعل ، فمن ذلك قولهم في التوراة التي بأيديهم: وندِمَ الله سبحانه وتعالى على خلق البشر الذين في الأرض وشقَّ عليه ، وعاد في رأيه.

وذلك عندهم في قصة قوم نوح.

وزعموا أن الله سبحانه وتعالى وتقدس لما رأى فساد قوم نوح ، وأن شرَّهم وكفرهم قد عَظُم ؛ ندِم على خلق البشر.

وكثيرٌ منهم يقول إنه[3] بكى على الطوفان حتى رمِدَ[4] وعادَته الملائكة ، وأنه عضَّ على أنامله حتى جرى الدمُ منها.

وقالوا أيضا إن الله تعالى ندِم على تمليكِه « شاؤول» على بني إسرائيل ، وأنه قال ذلك لشَمويل.

---

[1] النخوة هي العظمة والكبرياء والحماسة ، كما في «المعجم الوسيط» ، وعليه فمعنى ينخونه أي يستثيرون فيه العظمة والكبرياء والحماسة .

[2] أي: ومن أمثلة جرأتهم على الله تعالى.

[3] أي الله – سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا – .

[4] الرمد: مرض يصيب العينين.

وعندهم أيضا أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبحٍ لله تعالى وقرَّب عليه قُربانين ، وأن الله تعالى استنشق رائحة القُتار[1] ، فقال الله تعالى في ذاته: لن أُعاوِد لعنة الأرض بسبب الناس ، لأن خاطرَ البشر مطبوع على الرداءة ، ولن أُهلك جميع الحيوان كما صنعتُ.

وقد واجهوا رسول الله ﷺ وأصحابَه رضي الله تعالى عنهم بأمثال هذه الكُفريات ، فقال قائل منهم للنبي ﷺ : (إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح) ، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب﴾.[2]

وتأمل قوله تعالى عَقِيبَ[3] ذلك ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ ، فإنَّ أعداء الرسول ﷺ نسبوه إلى ما لا يليق به ، وقالوا فيه ما هو مُنزَّه عنه ، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يصبر على قولهم ، ويكون له أسوةٌ بربه سبحانه وتعالى حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق به.

وكذلك قال «فِنحاص» لأبي بكر: (إن الله فقير ونحن أغنياء ، ولهذا استقرضَنا[4] من أموالنا) ، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلَهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾[5].

---

[1] القُتار دخان ذو رائحة خاصة ينبعث عن الطبخ أو الاحتراق. انظر «المعجم الوسيط».

[2] اللغوب هو التعب والإعياء. انظر «النهاية».

[3] عَقِيب أي بعد.

[4] أي: طلب منا أن نُقرِضه ، قال ذلك لما أنزل الله تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه الله أضعافا كثيرة﴾ ، كما رواه ابن جرير في تفسير الآية المذكورة.

[5] انظر تفسير الآية وسبب نزولها في تفسير ابن جرير وكذا تفسير ابن أبي حاتم ، (سورة آل عمران: ١٨١).

وقالوا أيضا: يد الله مغلولة كما حكى الله ذلك سبحانه عنهم في قوله ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾.

ويقـولون في العشر الأُوَلِ من الشهر الأَوَّل من كل سـنة: يا إلٰهَنا وإلٰهَ آبائنا ، املُك على جميع أهل الأرض ، ليقولَ كلُّ ذي نَسَمَة[1]: الله إلٰه إسرائيل قد مَلَك ، ومملكتُه في الكل مُتسلِّطة.

ويقولون في هذه الصلاة أيضا: وسيكون لله تعالى المُلك ، وفي ذلك اليومِ يكون الله تعالى واحدا واسمه واحدا.

ويعنون بذلك أنه لا يَظهر أن المُلك لله تعالى إلا إذا صارت الدولة لليهود الذين هم صفوتُه وأُمته ، فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فإنه سبحانه وتعالى خاملُ الذكر عند الأمم ، مطعونٌ في ملكه ، مشكوكٌ في قدرته.

فصلٌ ، ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم مُولعون بالقـدح في الأنبياء وأذِيَّتهم ، وقد آذوا موسى عليه السلامَ في حياته ، ونسبوه إلى ما برَّأه الله تعالى منه ، ونهى الله سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك حيث يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبـرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾.

وثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراةً ينظر بعضهم إلى بعض[2] ، وكان موسى يغتسل وحده ، فقالوا: (والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه

---

[1] النَّسمة هي الروح. انظر «النهاية».

[2] أي ينظر بعضهم إلى عورة بعض.

آدَرْ[1]) ، فذهب موسى يغتسل فوضع ثوبه على حَجَرٍ ، ففرَّ الحجرُ بثوبه ، فجمحَ[2] موسى بأثرِهِ يقول: (ثوبي يا حجر ، ثوبي يا حجر) ، حتى نَظَرَتْ بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا: والله ما بموسى من بأس.

وأخذ ثوبه فطَفِقَ[3] بالحجر ضربا ، فقال أبو هريرة: والله إنه لَنَدَبٌ[4] بالحجر ستة أو سبعة ضربا بالحجر.[5]

وأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مما قالوا﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد: قالت بنو إسرائيل: إن موسى آدر ، وقالت طائفة: هو أبرص من شدة تَسَتُّرِهِ.[6]

وقال ابنُ سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : إن موسى كان رجلا حيِيًّا سِتِّيرا ، لا يكاد يُرى من جلده شيءٌ استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل وقالوا: ما تَستَّر هذا التَّستُّر إلا من عيبٍ في جلدِه ، إما برصٌ وإما أُدْرةٌ وإما آفةٌ ، وإنَّ الله أراد أن يُبرِّئه مما قالوا ، وذكر الحديث.[7]

وقال سفيان بن حسين عن الحكم عن ابن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ قال:

---

[1] آدر أي به انتفاخ في خصيته.

[2] جمح أي أسرع إسراعا لا يَرُدُّه شيء. انظر «النهاية».

[3] طَفِق أي أخذ في فعل ما. انظر «النهاية».

[4] قال ابن الأثير رحمه الله في «النهاية»: الندَب أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشُبه به أثر الضرب في الحجر.

[5] رواه البخاري (٢٧٨) ومسلم (٣٣٩) ، واللفظ للبخاري ، وقد ضبطت النص منه.

[6] انظر كلامه هذا في تفسير الآية المذكورة في تفسيره رحمه الله.

[7] انظر كلامه هذا في تفسير الآية المذكورة في تفسيره رحمه الله.

صعد موسى وهارونُ الجبل ، فمات هارونُ ، فقالت بنو إسرائيل[1] : (أنت قتلتَه ، وكان أشدَّ حبًّا لنا منك وألين لنا منك) ، وآذوه بذلك ، فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى مَرُّوا به على بني إسرائيل ، وتكلَّمت الملائكة بموته[2] حتى عَرف بنو إسرائيل أنه قد مات ، فبرَّأه الله تعالى من ذلك ، فانطلقوا به فدفنوه ، فلم يطَّلِعَ على قبره أحدٌ من خلق الله تعالى إلا الرَّخَم[3] ، فجعله الله تعالى أصمَّ أبكم.

وقال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾.

وتأمل قوله ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ ، فإنها جملة في موضع الحال ، أي: (أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم) ، وذلك أبلغ في العناد.

وكذلك المسيح قال ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديَّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾.

فهذا قليلٌ من كثيرٍ من أذاهُم لأنبيائهم.

وأما أذاهم لهم بالقتل والنفي فأشهرُ من أن يُذكر.

ولقد بالغوا في أذى النبي ﷺ بجُهدِهم بالقول والفعل ، حتى ردَّهم الله تعالى خاسئين.

---

[1] أي قالت لموسى عليه السلام.

[2] أي بسبب موته وأنه لم يكن مقتولا.

[3] الرَّخَم نوع من الطير معروف ، واحدته رخَمة ، وهو موصوف بالغدر ، وقيل: بالقذر. انظر «النهاية».

ومن قدحهم في الأنبياء ما نسبوه إلى نص التوراة أنه لما أهلك الله أمة لوط لفسادها ونجّى لوطا بابنتيه فقط ؛ ظنَّ ابنتاه أن الأرض قد خلت ممن يستبقِين منه نَسْلا[1] ، فقالت الصغرى للكبرى: (إن أبانا شيخٌ ، ولم يبق في الأرض إنسانٌ يأتينا كسبيل البشر[2] ، فهلُمِّي نسقي أبانا خمرا ونُضاجعُه لنستبقي من أبينا نسلا) ، ففعلتا ذلك بزعمهم ، فنسبوا إلى النبي أنه سكِرَ حتى لم يَعرف ابنتيه ، ثم وطِئَهما وأحبَلهما[3] وهو لا يعرفهما ، فولدت إحداهما ولدا سمَّته «مواب» ، يعني أنه من الأب ، والثانية سمَّت ولدها «ابن عمي» ، يعني أنه من قَبيلها[4] .

وقد أجاب بعضهم عن هذا بأنه كان قبل نزول التوراة ، فلم يكن نكاحُ الأقارب حراما ، والتوراة تُكذِّبُهم ، فإن فيها أن إبراهيم الخليل خافَ في ذلك العصر أن يقتلَه المِصرِيون حسدا له على زوجته سارة ، فأخفى نكاحها وقال: (هي أختي) ، علما منه بأنه إذا قال ذلك لم يبقَ للظنون إليهما سبيل.

وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاحِ الأختِ كان ثابتا في ذلك الزمان ، فما ظنُّك بنكاح البنت الذي لم يُشرع ولا في زمن آدم عليه السلام.

وعندهم أيضا في التوراة التي بأيديهم قصةٌ أعجب من هذه ، وهي أن يهوذا بن يعقوب النبي زوَّج ولدَه الأكبر من امرأةٍ يقال لها «تامار» ، فكان

[1] أي: يُنجِبن منه نسلا.

[2] أي: يَنكحنا كحال البشر.

[3] أحبَلهما أي حملا منه.

[4] أي من جهتها في العائلة.

يأتيها مستدبرا[١] ، فغضِب الله تعالى من فعله ، فأماته ، فزوَّج يهوذا ولده الآخر بها ، فكان إذا دخل بها أنزَل على الأرضِ[٢] عِلما منه بأنه إن أوْلَدها كان أوَّلُ الأولادِ مدعوًّا باسم أخيه ومنسوبا إلى أخيه ، فكرِه الله تعالى ذلك من فعله ، فأماته أيضا ، فأمرها يهوذا باللِّحاق ببيت أبيها إلى أن يكبُرَ «شيلا» ولدُه ويتمَّ عقلُه ، حذرا من أن يصيبَه ما أصاب أخوَيه ، فأقامت في بيت أبيها ، ثم ماتت من بعدُ زوجةُ يهوذا ، وصعِد إلى منزل ليحرس غنمه ، فلما أُخبرت المرأة «تامار» بإصعاد حَمْوِها إلى المنزل لبِست زِيَّ الزَّواني وجلست في مُستشرَفٍ[٣] على طريقِه لعلمها بشِبَقِهِ[٤] ، فلما مر بها خالَها[٥] زانية فراوَدها فطالبته بالأُجرة ، فوعدها بِجَدْيٍ ورهَنَ عندها عصاهُ وخاتمهُ ودخل بها ، فعلِقَت منه[٦] ، فلما أُخبِر يهوذا أن كَنَّتَهُ[٧] علِقت من الزنا أفتى بإحراقها ، فبعثَت إليه بخاتمِه وعصاه ، فقالت: مِن ربِّ[٨] هٰذين أنا حامل.

فقال: صدقتِ ، ومتى ذلك؟

واعتذر بأنه لم يعرفها ، ولم يستحِل معاودتها ، ولا تسليمها إلى ولده ، وعلِقت من هذا الزنا بِعارِض[٩].

---

[١] أي يأتيها في دُبُرِها.

[٢] أي أنزل مَنِيَّهُ في الأرض وليس في فرجها.

[٣] مستشرف أي مكان مشرفٍ ظاهر.

[٤] الشَّبق هو شدة الشهوة. انظر «المعجم الوسيط».

[٥] خالَها أي ظنها.

[٦] أي حملت منه.

[٧] الكَنَّه: امرأة الابن وامرأة الأخ. انظر «المعجم الوسيط».

[٨] رَبُّ هٰذين ، أي مالكهما.

[٩] أي هكذا عَرَضا ، بسبب تلك الزَّنْية.

قالوا: ومِن ولَدِها داودُ النبيُّ.[1]
وفي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر إلى أهل بيت النبوة ما يُقاربُ ما نسبوه إلى لوط عليه السلام.
وهذا كلُّه عندهم وفي نصِّ كتابهم ، وهم يجعلون هذا نسَبًا لداود وسليمان عليهما السلام ولمسيحِهم المنتظر.
ومن العجب أنهم يجعلون المسلمين أولاد زنا ، ويسمونهم «مَمازير» ، واحدها «مَمزير» ، وهو اسمٌ لولد الزنا ، لأنَّ شرْعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن نكحت زوجا غيره فأولادهما أولاد زنا.
وزعموا أن ما جاءت به شريعة الإسلام من ذلك هو من موضوعات عبد الله بن سلام ، قصد به أن يجعل أولاد المسلمين مَمازير بزعمهم.
قالوا: وكان محمد ﷺ قد رأى أحلامًا تدل على أنه صاحب دولة[2] ، فسافر إلى الشام في تجارة لخديجة ، واجتمع بأحبار اليهود وقصَّ عليهم أحلامه ، فعلِموا أنه صاحب دولة ، فأَصحَبوه عبدَ الله بن سلام ، فقرأ عليه عُلوم التوراة وفِقهَها مدةً ، ونسبوا الفصاحة والإعجاز الذي في القرآن إلى عبد الله بن سلام ، وأن من جملة ما قرَّره عبد الله بن سلام أن الزوجة لا تحلُّ للمُطلِّقِ ثلاثا إلا بعد أن ينكحها رجل آخر ، ليجعل أولادَ المسلمين أولادَ زنا.
ولا ريب أن مثل هذا البَهتِ يروج على كثير من حميرهم.

[1] هذه فِرية أخرى على الأنبياء.
[2] هذه فِرية أخرى على الأنبياء.

وقد خلق الله تعالى لكل باطلٍ وبَهتٍ حَمَلةً ، كما للحق حملة ، وليس وراء هذا البَهت بَهتٌ.

وليس بمستنكَرٍ لأمةٍ قدَحت في معبودها وإلٰهها ونَسَبته إلى ما لا يليق بعظمته وجلاله ، ونَسَبت أنبياءَه إلى ما لا يليق بهم ، ورمتهم بالعظائم ؛ أن ينسُبوا محمدا ﷺ إلى ذلك ، وعداوتُه لهم وملاحِمُه فيهم وإجلاؤه لهم من ديارهم وأموالهم وسبيُ ذراريهِم ونسائِهم معلومٌ غير مجهول.

وقد نسبت هذه الأمةُ الغضبية عيسى ابن مريم إلى أنه ساحر وَلَدُ غَيَّةٍ[1] ، ونسبت أمه إلى الفجور.

ونسبت لوطا إلى أنه وطِئ ابنتيه وأوْلَدَهما وهو سكرانٌ من الخمر.

ونسبوا سليمان عليه السلام إلى أنه كان ملِكًا ساحرا ، وكان أبوه عندهم ملِكًا مسيحا.

ونسبوا يوسف الصديق عليه السلام إلى أنه حَلَّ تِكَّةَ[2] سراويله وتِكَّةَ سراويلِ سيدته ، وأنه قعد منها مقعد الرجل من المرأة ، وأن الحائط انشقَّ له فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضًّا على أنامله ، فلم يَقمْ حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا يوسف ، تكونُ من الزُّناة وأنت معدودٌ عند الله تعالى من الأنبياء؟

فقام حينئذ.

ومعلوم أن ترْكَ الفاحشة عن هذا لا مدح فيه ، فإن أفسق الناس لو رأى ذلك لولَّى هاربا وترك الفاحشة.

---

[1] أي ولدُ زَنية ، حاشا نبي الله وأمه. انظر «المعجم الوسيط».

[2] التِّكة هي رباط السراويل. انظر «المعجم الوسيط».

ومنهم من يزعمُ أن المسيح كان من العلماء ، وأنه كان يُداوي المرضى بالأدوية ، ويوهمُهم أن الانتفاع إنما حصل لهم بدعائه ، وأنه داوى جماعةً من المرضى في يوم السبت ، فأنكرت عليه اليهود ذلك ، فقال لهم: أخبِروني عن الشاة من الغنم إن وقعت في بئرٍ ، أمَا تنزِلون إليها وتُحِلُّون السبت لتخليصها؟

قالوا: بلى.

قال: فلِمَ أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تُحِلُّونه لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟

فأُفحِموا.

ويحكون أيضا عنه أنه كان مع قوم من تلاميذه في جبل ولم يحضُرهم الطعام ، فأذِن لهم في تناول الحشيش يوم السبت ، فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش في يوم السبت ، فقال لهم: أرأيتم لو أنَّ أحدكم كان وحيدا مع قوم على غير ملته ، وأمرهم بقطع النبات وإلقائه لدوابهم ، لا يقصِدون بذلك إبطال السبت ، ألستم تُجيزون له قطع النبات؟

قالوا: بلى.

قال: فإن هؤلاء القوم أمرتُهم بقطع النبات ليأكلوه ولِيغتذوا به ، لا لِقطع السبت.

ومن العجب أن عندهم في التوراة التي بأيديهم: لا يزولُ المُلكُ من آل يهوذا ، والرَّاسِمُ[1] من بين ظهرانيهم ؛ إلى أن يأتي المسيح.

وهم لا يقدرون أن يجحدوا ذلك.

---

[1] الراسم هو الماء الجاري كما في «المعجم الوسيط» ، ولعله ماء كان يجري في ديارهم من نبع أو نهر ونحوه.

فيقال لهم: إنكم كنتم أصحابَ دولة حتى ظهر المسيح ، ثم انقضى ملكُكُم ولم يبق لكم اليوم مُلك ، وهذا برهان على أن المسيح قد أُرسل ، ومن حين بُعِث المسيح وكفروا به وطلبوا قتله استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس وانقضت دولتهم وتفرَّق شملهم.

فيقال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فيقولون: وَلَدُ يوسفَ النجار ، لِغَيَّةٍ لا لِرِشدَةٍ[1] ، وكان قد عَرف اسم الله الأعظم ، يُسَخِّرُ به كثيرا من الأشياء.

وعند هذه الأمةِ الغضَبية أيضا أن الله تعالى كان قد أطْلع موسى عليه السلام على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفا ، وبه شقَّ البحر وعمِل المعجزات!

فيقال لهم: فإذا كان موسى قد عمل المعجزات باسم الله سبحانه ، فلِم صدَّقْتم نبوته وأقررتم بها ، وجحدتم نبوة عيسى وقد عمل المعجزات بالاسم الأعظم؟

فأجاب بعضهم عن هذا الإلزام بأن الله سبحانه هو الذي علَّم موسى ذلك الاسم ، فعلَّمه بالوحي ، وعيسى إنما تعلَّم من حيطانٍ ببيت المقدس.

وهذا هو اللائق ببَهتِهم وكذِبهم على الله تعالى وأنبيائه ، وهو يسُدُّ عليهم العلم بنبوة موسى ، لأن كِلا الرسولين اشتركا في المعجزات والآيات الظاهرة التي لا يقدِر أحد أن يأتي بمثلها ، فإن كان أحدهما قد عمِلها بحيلةٍ أو بعلمٍ فالآخرُ يمكن ذلك في حقه ، وقد أخبرا جميعا أن الله سبحانه وتعالى هو

[1] غَيَّةٌ أي زنية ، والرِّشدة أي نكاح صحيح ، انظر «المعجم الوسيط». واليهود يعنون بهذا أن عيسى عليه السلام ولدُ يوسف النجار ، وأن أمه مريم حملت به من سِفاح لا من نكاح ، حاشا نبي الله عيسى من ذلك.

الذي أجرى ذلك على أيديهما وأنه ليس من صنعهما ، فتكذيبُ أحدِهما وتصديق الآخرِ تفريقٌ بين المتماثلين.

وأيضا ، فإنه لا دليل لهم على أن موسى تلقَّى تلك المعجزات عن الله تعالى إلا وهو يدل على أن عيسى عليه السلام تلقَّاها أيضا عن الله تعالى ، فإنْ أمكن القدحُ في معجزات عيسى أمكن القدحُ في معجزات موسى عليه السلام ، وإن كان ذلك باطلا فهذا أيضا باطل.

وإذا كان هذا شأن معجزات هٰذين الرسولين معَ بُعدِ العهدِ[1] وتَشَتُّتِ شملِ أُمتيهما في الأرض ، وانقطاع معجزاتهما ؛ فما الظَّن بنبوةِ مَن معجزاتُه وآياتُه تزيد على الألف ، والعهدُ بها قريبٌ ، وناقِلوها أصدقُ الخلق وأبرُّهم ، ونَقْلُها ثابت بالتواتر قرنا بعد قرن ، وأعظمها معجزةً كتابٌ باقٍ غضٌّ طريٌّ ، لم يتغير ولم يتبدل منه شيء ، بل كأنه منزَّلٌ الآن ، وهو القرآن العظيم ، وما أخبر به يقع كلَّ وقتٍ على الوجه الذي أَخبر به حتى كأنه كان يشاهدُه عَيانًا.

فصلٌ ، ولا يمكن البتة أن يؤمنَ يهودي بنبوة موسى عليه السلام إن لم يؤمن بنبوة محمد ﷺ ، ولا يمكن نصرانيا أن يقر بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد ﷺ .

وبيان ذلك أن يُقال لهاتين الأمتين: أنتم لم تشاهدوا هٰذين الرسولين ، ولا شاهدتم آياتهما وبراهين نبوتهما ، فكيف يَسع العاقل أن يكذب نبيا ذا دعوة شائعة وكلمة قائمة وآيات باهرة ، ويُصدِّق من ليس مثله ولا قريبا منه

---

[1] بُعدُ العهدِ أي بُعد الزمان.

في ذلك لأنه لم ير أحد النبيَّيْن ولا شاهد معجزاته ، فإذا كذَّب بنبوة أحدهما لزِمه التكذيب بنبوتهما ، وإن صدَّق بأحدهما لزِمه التصديق بنبوتهما ، فمن كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم ولم ينفعه إيمانه به ، قال الله تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفرِّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾ ، وقال تعالى ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ ، فنقول للمغضوب عليه: هل رأيت موسى وعاينتَ معجزاته؟

فبالضرورة يقول: لا.

فنقول له: بأي شيءٍ عرفت نُبوته وصِدقه؟

فله جوابان: **أحدهما** ، أن يقول أبي عرَّفني ذلك وأخبرني به.

والثاني أن يقول: التواتر وشهادات الأمم حقَّق ذلك عندي كما حقَّقت شهادتهم وُجود البِلاد النائية والبحار والأنهار المعروفة وإن لم أشاهدها.

فإن اختار الجواب الأول وقال: (شهادة أبي وإخبارِه إياي بنبوة موسى هي سبب تصديقي بنبوته) ، فيقال له: ولِمَ كان أبوك عندك صادقا في ذلك معصوما عن الكذب وأنت ترى الكفار يُعلِّمهم آباؤهم ما هو كفرٌ عندك؟ فإذا كنت ترى الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة قد أخذها أربابُها عن آبائهم كأخذك مـذهبَك عن أبيك ، وأنت تعلم أن الذين[1] هم عليه

[1] هكذا في المطبوع وفي نسخة (علي) ، ولعل الصواب: الذي.

ضلال ؛ فيلزمك أن تبحث عما أخذْتَه عن أبيك خوفا أن تكون هذه حالُه.

فإن قال: (إنَّ الذي أخذتُه عن أبي أصحُّ من الذي أخذه الناس عن آبائهم) ؛ كفاهُ معارضةُ غيره له بمثل قوله.[1]

فإن قال: (أبي أصدق من آبائهم وأعرف وأفضل) ؛ عارضه سائر الناس في آبائهم بنظير ذلك.

فإن قال: (أنا أعرِف حال أبي ولا أعرف حال غيره) ؛ قيل له: فما يؤمِّنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك وأفضل وأعرف؟

وبكل حال فإن كان تقليد أبيه حـجة صحيحة كان تقليد غيره لأبيه كذلك ، وإن كان ذلك باطلا كان تقليده لأبيه باطلا.

فإن رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثاني وقال: (إنما عَلِمتُ نبوة موسى بالتواتر قرنا بعد قرن ، فإنهم أخبروا بظهوره وبمعجزاته وآياته وبراهين نبوته التي تَضطر إلى تصديقه) ؛ فيقال له: (لا ينفعك هذا الجواب ، لأنك قد أبطلت ما شهِد به التواتر من نبوة عيسى ومحمد ﷺ).

فإن قلت: تواتَرَ ظهور موسى ومعجزاته ولم يتواتر ذلك في المسيح ومحمد ؛ قيل: هذا هو اللائق ببُهت الأمة الغضبية ، فإن الأمم جميعهم قد عرفوا أنهم قومٌ بُهت ، وإلا فمِن المعلوم أن الناقِلِين لمعجزات المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أضعافُ أضعافكم بكثير ، والمعجزات التي شاهدها أوائلهم لا تنقُص عن المعجزات التي أتى بها موسى عليه السلام ، وقد نقلها عنهم

[1] أي أن ما يعارِض به غيرُه كلامَه يكفي في بطلان قوله ، فهو يصف ما أخذه عن أبيه بالصدق ، وهم كذلك يصفون ما أخذوه عن آبائهم بالصدق.

أهل التواتر جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، وأنت لا تَقبل خبر التواتر في ذلك وترُدُّه ، فيلزمُك أن لا تقبله في أمر موسى عليه السلام.

ومن المعلوم بالضرورة أن من أثبت شيئا ونفى نظيره فقد تناقض ، وإذا اشتهر النبي في عصر وصحَّت نبوتُه في ذلك العصر بالآيات التي ظهرت عليه لأهل عصره ، ووصل خبرُه إلى أهل عصرٍ آخر ؛ وجب عليهم تصديقُه والإيمان به ، وموسى والمسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم في هذا سواء.

ولعل تواتُر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد ، لأن الأمة الغضبية قد مزَّقها الله تعالى كل ممزق ، وقطَّعها في الأرض ، وسلَبها مُلكها وعِزَّها ، فلا عيش لها إلا تحت قهر سواها من الأمم لها ، بخلاف أمة عيسى عليه السلام ، فإنها قد انتشرت في الأرض ، وفيهم الملوك ، ولهم الممالِك ، وأما الحنفاء فمَمالكهم قد طبَّقت مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وملأوا الدنيا سهلا وجبلا ، فكيف يكون نقلُهم لما نقلوه كذبا ، ونقلُ الأمة الغضبية الخاملة القليلة الزائلة صِدقا؟!

فثبت أنه لا يمكن يهوديا على وجه الأرض أن يُصدِّق بنبوة موسى عليه السلام إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد ﷺ ، ولا يمكن نصرانيا البتة الإيمان بالمسيح عليه السلام إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ .

ولا ينفع هاتين الأمتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح لأنهم إنما آمنوا بهما على يد محمد ﷺ ، وكان إيمانهم بهما من الإيمان بمحمد وبما جاء به ، فلولاه ما عرفنا نبوتهما ولا آمنا بهما ولا بنبيهما ، فإن أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم ما يوجب الإيمان بهم ، فلولا القرآن ومحمد ﷺ ما

عرفنا شيئا من آيات الأنبياء المتقدمين ، فمحمد ﷺ وكتابه هو الذي قرَّر نبوة موسى ونبوة المسيح عليهما الصلاة والسلام ، لا اليهود والنصارى ، بل كان نفسُ ظهوره ومجيئه تصديقا لنبوتهما ، فإنهما أخبرا به وبشَّرا بظهوره قبل ظهوره ، **فلما بُعِث كان بَعثُه تصديقا لهما** ، وهذا أحد المَعنَيين في قوله تعالى ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين﴾ ، أي مجيئُه تصديقٌ لهم من جهتين: من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه ، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروا به ، ومطابقة ما جاءوا به لما جاءوا به ، فإن الرسول الأوَّل إذا أتى بأمرٍ لا يُعلمُ إلا بالوحي ، ثم جاء نبي آخر لم يقارِبه في الزمان ولا في المكان ، ولا تلقَّى عنه بمثل ما جاء به سواء ؛ دل ذلك على صدق الرسولَين الأول والآخِر ، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبرٍ عن عَيان ، ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث نعلم أنه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمَّن تلقى عنه – فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواءً ، فإنه يُضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني أنه لم يأت مُكذبا لمن قبله من الأنبياء مُزرِيَا عليهم ، كما يفعل الملوك المُتغلبة على الناس بمن تقدمهم من الملوك ، بل جاء مصدقا لهم ، شاهدا بنبوتهم ، ولو كان كاذبا مُتقوِّلًا مُنشِئًا مِن عنده سياسةً ؛ لم يُصدِّق مَن قَبله ، بل كان يُزري بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الأنبياء.

فصلٌ ، وقد اختلف أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم ، هل هي مُبدَّلة ، أم التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل ، على ثلاثة أقوال ؛ طرفين ووسط:

فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلَّها أو أكثرها مبدَّلة مغيرة ، ليست التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام ، وتعرَّض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض.

وغلا بعضهم ، فجوَّز الاستجمار بها من البول.

وقابلهم **طائفة أخرى** من أئمة الحديث والفقه والكلام فقالوا: بل التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل ، وهذا مذهب أبي عبد الله ، محمد بن إسماعيل البخاري ، قال في «صحيحه»: يُحرِّفون: يُزيلون ، وليس أحد يُزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يُحرِّفونه ، يتأولونه على غير تأويله.[1]

وهذا اختيار الرازي في «تفسيره».

وسمعت شيخَنا[2] يقول: وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء ، فاختار هذا المذهب ووهَّن غيره ، فأُنكِر عليه ، فأَحضر لهم خمسة عشر نقلاً به.[3]

ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبَّقت مشارق الأرض ومغاربها ، وانتشرت جنوبا وشمالا ، ولا يَعلم عدد نُسَخها إلا الله تعالى ، ومن الممتنع أن يَقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض

[1] قاله البخاري رحمه الله في «صحيحه» ، كتاب التوحيد ، باب: ٥٥ ، وقد ضبطت النص منه.

[2] يعني بشيخه: ابن تيمية رحمه الله.

[3] أي أَحضر لهم خمسة عشر نقلاً يثبت كلامه.

نسخة إلا مبدلة مُغيَّرة ، والتغيير على مِنهاج واحد ، وهذا مما يُحيله العقل ويشهد ببطلانه.

قالوا: وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ محتجا على اليهود بها ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾.

قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ، ولهذا لمَّا قرؤوها على النبي ﷺ وضع القارئ يده على آية الرجم فقال له عبد الله بن سلام: (ارفع يدك عن آية الرجم) ، فرفعها ، فإذا هي تلوحُ تحتها.[1]

فلو كانوا قد بدَّلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

قالوا: وكذلك صفات النبي ﷺ ومخرجِهِ هو في التوراةِ بيِّنٌ جدا ، ولم يمكنهم إزالته وتغييره ، وإنما ذمَّهم الله تعالى بكتمانه ، وكانوا إذا احتُجَّ عليهم بما في التوراة من نعته وصفته يقولون: ليس هو ، ونحن ننتظره.

قالوا: وقد روى أبو داود في «سننه» عن ابن عمر قال: أتى نفرٌ من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القُفِّ[2] ، فأتاهم في بيت المِدْراس[3] فقالوا: يا أبا القاسم إنَّ رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم.

فوضعوا لرسول الله وسادة فجلس عليها ثم قال: (ائتوني بالتوراة) ، فأُتـي بـها ، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، ثم قال: (آمنتُ بِكِ وبمن

[1] قصة الرجم رواها البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩) ، وهي أن رجلا من اليهود زنى بامرأة منهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فسألهم: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. فقال عبد الله بن سلام وكان من أحبارهم: كذبتم ، إن فيها – أي التوراة – الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها فجعل أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك ، فرفعها فإذا فيها آية الرجم ، فقال اليهود: صدق يا محمد ، فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِما.

[2] القَفُّ وادٍ من أودية المدينة. انظر «النهاية».

[3] المِدراس هو البيت الذي يدرس فيه اليهود. انظر «النهاية».

أنزلكِ) ، ثم قال: (ائتوني بأعلَمِكم) ، فأُتي بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم.[1]

قالوا: فلو كانت مبدَّلة مغيرة لم يضعها على الوسادة ، ولم يقل: آمنتُ بكِ.

قالوا: وقد قال تعالى ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدَّل لكلماته وهو السميع العليم﴾ ، والتوراة من كلماته.

قالوا: والآثار التي في كتمان اليهود صِفةَ رسول الله ﷺ في التوراة ، ومَنعِهم أولادَهم وعوامَّهم من الاطلاع عليها مشهورةٌ ، ومنِ اطَّلع عليها منهم قالوا له: ليس به[2].

فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة.

وتوسطت **طائفة ثالثة** وقالوا: قد زِيدَ فيها وغُيِّرَ ألفاظٌ يسيرة ، ولكن أكثرَها باقٍ على ما أُنزِل عليه ، والتبديل في يسير منها جدا ، وممن اختار هذا القول شيخُنا[3] في كتابه «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» ، قال: وهذا كما في التوراة عندهم أن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم عليه السلام: اذبح ولدك ، بِكْرَكَ ووحيدَك إسحاق.

فـ «إسحاق» زيادة منهم في لفظ التوراة.

قلت: وهي باطلة قَطعا من وجوه عشرة:

أحدها: أن بِكْرَهُ ووحيده هو إسماعيل باتفاق المِلل الثلاث ، فالجمع بين كونِه مأمورا بذبحِ بِكْرِهِ وتعيينه بإسحاق جمعٌ بين النقيضين.

---

[1] رواه أبو داود (٤٤٤٩) ، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٩٤/٥).

[2] أي ليست الأوصاف به.

[3] يعني بشيخه: ابن تيمية رحمه الله كما تقدم.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم أن ينقُلَ هاجَرَ وابنها إسماعيل عن سارة ويُسكنهما في بَرِيَّةِ مكة لئلا تَـغِيرُ سارة[1] ، فأمر بإبعاد السُّرِّيَّة[2] وولدها عنها حفظا لقلبها ودفعا لأذى الغَيرة عنها ، فكيف يأمر الله سبحانه وتعالى بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاءِ ابن السُّرِّيَّة ، فهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعا ، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرا للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن الله سبحانه بشَّر سارة أم إسحاق ﴿بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ، فبشَّرها بهما جميعا ، فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشَّر أبويه بِولدِ ولدِه؟!

الخامس: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة الذبيح ، وتسليمَه نفسه لله تعالى ، وإقدامَ إبراهيم على ذبحه ، وفرغ من قصته ؛ قال بعدها ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ ، فشكر اللهُ تعالى له استسلامَه لأمره ، وبذْلَ ولدِه له ، وجعَلَ مِن إثابته على ذلك أن آتاه إسحاق ، فنجَّى إسماعيل من الذبح وزاده عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه سأل ربَّه الولَدَ فأجاب الله دعاءَه وبشَّره به ، فلما بلغ معه السعي[3] أمره بذبحه ، قال تعالى ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هَب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم﴾ ، فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بُشِّر به بعد دعائِه وسؤالِه ربه

---

[1] أي تغار من المملوكة كما سيأتي قريبا.

[2] أي الأمَة المملوكة.

[3] أي صار الابن يمشي مع والده ويسعى للعمل ، وهو سن يكون فيه الابن قد بلغ حبه عند والده مبلغا عظيما.

أن يَهَبَ له ولدا ، وهذا المُبشَّر به هو المأمور بذبحه قطعا بنص القرآن ، وأما إسحاق فإنه بُشِّر به من غير دعوةٍ منه ، بل على كِبَرِ السِّن وكونِ مثلِه لا يُولد له ، وإنما كانت البِشارة به لامرأته سارة ، ولهذا تعجَّبت من حصول الولد منها ومنه ، قال تعالى ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه نكِرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط * وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتا ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ ، فتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدُهما بشارتين متفاوتتين ، مخرجُ إحداهما غير مخرج الأخرى ، والبشارة الأولى كانت له والثانية كانت لها ، والبشارة الأولى هي التي أُمر بذبح من بُشِّر به فيها دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم عليه السلام لم يَقدُم بإسحاق إلى مكة البتة ، ولم يُفرِّق بينه وبين أمه ، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضَرَّتها ، وفي بلدِها ، ويدَع ابن ضرَّتها؟!

الثامن: أن الله تعالى لما اتخذ إبراهيم خليلا – والخُلَّة تقتضي أن يكون قلبُه كلُّه معلقا بربه ، ليس فيه شعبة لغيره – فلما سأل الولدَ[1] وهبه إسماعيل ، فتَعلَّقَ به شعبةٌ من قلبه ، فأراد خليلُه سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق ، فامتحنه بذبح ولده ، فلما أقدم على

[1] أي سأل إبراهيمُ ربَّهُ الولد.

الامتثال خَلُصت له تلك الخُلَّة ، وتمحَّضت لله وحده ، فنُسِخ الأمر بذبحه لحصول المقصود ، وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال.

ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها ، فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول لم يُحتج في الولد الآخر إلى مثله ، فإنه لو زاحمت محبةُ الولدِ الآخر الخُلةَ لأَمَرَ بذبحه كما أمر بذبح الأول ، فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقرَّه في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة ، ثم أمره بما يزيل المزاحِم بعد ذلك ، وهذا خلاف مقتضى الحكمة ، فتأمله.

التاسع: أن إبراهيم عليه السلام إنما رُزِق إسحاق عليه السلام على الكِبَر ، وإسماعيل عليه السلام رُزِقه في عنفوانه وقوَّته ، والعادة أن القلبَ أعْلقُ بأول الأولاد ، وهو إليه أَمْـيَلُ وله أحب ، بخلاف من يُرزَقَهُ على الكِبَر ، ومحل الولد بعد الكِبَر كمحل الشهوة للمرأة.[١]

العاشر: أن النبي ﷺ كان يفتخر بقوله: أنا ابن الذَّبيحين.[٢]

يعني أباه عبد الله ، وجده إسماعيل.

والمقصود أن هذه اللفظة مما زادوها في التوراة ، ونحن نذكر السبب الموجِب لتغيير ما غُيِّر منها ، والحقُّ أحقُّ ما اتُّبع ، فلا نغلو غلوَّ المستهينين بها ، المستجمِرين بها[٣] ، بل معاذ الله من ذلك ، ولا نقول إنها باقية كما أُنزلت من كل وجهٍ كالقرآن ، فنقول وبالله التوفيق:

---

[١] أي مكانة الولد في القلب بعد الكبر كمكانة الشهوة للمرأة بعدما تكبر ، فإن المكانة تكون ضعيفة في الحالين.

[٢] للأمانة العلمية ، فالحديث ضعيف كما بينه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (٣٣١ ، ١٦٧٧) ، ويغني عنه ما تقدمه من الأدلة العقلية والنقلية ، والحمد لله.

[٣] أي الذين يقولون أنها تصلح للاستجمار ، يشيرون إلى أنها غير محترمة لأنها — برمتها – ليست كلام الله أصلا ، حسب قولهم.

إن علماء اليهود وأحبارهم لا يعتقدون أن هذه التوراة التي بأيديهم هي التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران بِعينِها ، لأن موسى عليه السلام صان التوراة عن بني إسرائيل خوفا من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي إلى تفرُّقهم أحزابا ، وإنما سلَّمها إلى عشيرته أولاد «لاوي» ، ودليل ذلك قوله في التوراة: (وكتب موسى هذه التوراة ودفعها إلى الأئمة من بني «لاوي» ، وكان بنو هارون قُضاةَ اليهودِ وحكامَهم ، لأن الإمامة وخِدمة القرابِين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم ، ولم يبذِل موسى عليه السلام من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة ، وهي التي قال فيها: وكتب موسى هذه السورة وعلَّمها بني إسرائيل).

هذا نص التوراة عندهم ، قال: (وتكون لي هذه السورة شاهدةً على بني إسرائيل) ، وفيها قال الله تعالى: (إن هذه السورة لا تُنسى من أفواه أولادهم).

وهذه السورة مشتملة على ذمِّ طبائعهم ، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة ، وأن السُّخط يأتيهم بعد ذلك ، وتُخرَّبُ ديارهم ، ويُسْبونَ في البلاد ، فهذه السورة تكون متداوَلة في أفواههم كالشاهد عليهم ، المُوقِف لهم على صحة ما قيل لهم.

فلما نصت التوراة أن هذه السورة لا تُنسى من أفواه أولادهم ؛ دلَّ ذلك على أن غيرها من السور ليس كذلك ، وأنه يجوز أن يُنسى من أفواههم.

وهذا يدل على أن موسى عليه السلام لم يُعطِ بني إسرائيل من التوراة إلا هذه السورة ، فأما بقيتها فدَفعها إلى أولاد هارون ، وجعلها فيهم ، وصانها

عن سواهم ، وهؤلاء الأئمة الهارونيون الذين كانوا يَعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قَتَلهم «بُخْتنصَّر» على دمٍ واحد يوم فتح بيت المقدس ، ولم يكن حِفظُ التوراة فرضا عليهم ولا سُنة ، بل كان كلٌّ واحد من الهارونيين يحفظ فصلا من التوراة ، فلما رأى «عُزير» أن القوم قد أُحرق هيكلُهم وزالت دولتهم وتفرَّق جمعهم ورُفع كتابهم ؛ جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم ، ولذلك بالغوا في تعظيم «عزير» هذا غاية المبالغة.

فزعموا أن النور الآن يظهر على قبره وهو عند بطائح[1] العراق لأنه جَمع لهم ما يَحفظ دينهم.

وغلا بعضهم فيه حتى قال هو ابن الله ، ولذلك نسب الله تعالى ذلك[2] إلى اليهود إلى جنسهم ، لا إلى كل واحد منهم.[3]

فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب «عُزير» ، وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه الصلاة والسلام ، ثم تداولتها أمةٌ قد مزَّقها الله تعالى كل ممزق وشتَّت شملها ، فلحِقها ثلاثة أمور:

أحدها: بعضُ الزيادة والنقصان.

الثاني: اختلافُ الترجمة.

الثالث: اختلافُ التأويل والتفسير.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تبين حقيقة الحال:

[1] بطائح جمع أبطح ، وهو المكان المتسع يمر به السيل ، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. انظر «المعجم الوسيط».

[2] أي ذلك القول.

[3] كما في قوله تعالى ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾.

المثال الأول: ما تَقدم من قوله: (ولحمٌ في الصحراء فريسةٌ لا تأكلوا ، وللكلب ألقوه).

وتقدم بيان تحريفِهم هذا النص ، وحملِه على غير محمَله.

المثال الثاني: قولُه في التوراة: (نبيا أُقيم لهم من وسطِ إخوتهم مثلكَ[1] ، فليؤمنوا به) ، فحرَّفوا تأويلَه ، إذ لم يمكِنهم أن يُبَدلوا تنزيله ، وقالوا: هذه بشارة بنيٍّ من بني إسرائيل ، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه لو أراد ذلك لقال: (من أنفسهم) ، كما قال في حق محمد ﷺ ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا **من أنفسهم**﴾ ، وقال تعالى ﴿لقد جاءكم رسول **من أنفسكم**﴾ ، ولم يقل (من إخوتكم).

الثاني: أن المعهود في التوراة أن إخوتَهم غير بني إسرائيل ، ففي الجزء الأول من السِّفرِ الخامس قولُه لهم: (أنتم عابرون في تُخوم[2] إخوتكم «بني العِيص» ، المقيمين في «سيعير» ، إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم) ، فإذا كان «بنو العيص» إخوةً لبني إسرائيل لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق ، والروم هم «بنو العيص» ، واليهود هم بنو إسرائيل وهم إخوتُهم ؛ فكذلك بنو إسماعيل إخوةٌ لجميع ولد إبراهيم.

الثالث: أن هذه البشارة لو كانت بـ «شمويل» أو غيره من بني إسرائيل لم يَصح أن يقال: (بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل) ، وإنما المفهوم من هذا أن بني إسماعيل أو «بني العيص» هم إخوة بني إسرائيل.

[1] المخاطب هو موسى عليه الصلاة والسلام ، والمقصود بالنبي هو النبي محمد ﷺ .

[2] تُخوم جمع تخم ، وهو الحد الفاصل بين أرضين. انظر «المعجم الوسيط».

الرابع: أنه قال: (أُقيمُ لهم نبيا مثلك) ، وفي موضع آخر: (أُنزل عليه توراةً مثل توراة موسى) ، ومعلوم أن «شمويل» وغيرَه من أنبياء بني إسرائيل لم يكن فيهم مثل موسى ، لا سيما وفي التوراة: (لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى) ، وأيضا فليس في بني إسرائيلَ مَن أُنزل عليه توراةٌ مثلُ توراةِ موسى إلا محمد والمسيح صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والمسيح كان من أَنفُسِ بني إسرائيل لا من إخوتهم ، بخلاف محمد ﷺ فإنه من إخوتهم بني إسماعيل.

وأيضا فإن في بعض ألفاظ هذا النص: (كلكم له تسمعون) ، وشمويل لم يأت بزيادة ولا نسخ ، لأنه إنما أُرسل ليُقوِّيَ أيديَهم على أهل فلسطين وليرُدَّهم إلى شرع التوراة ، فلم يأت بشريعة جديدة ولا كتاب جديد ، وإنما حُكمه حكم سائر أنبياء بني إسرائيل ، فإنهم كانت تسوسُهم[1] الأنبياء ، كلما هلك نبي قام فيهم نبي ، فإن كانت هذه البشارة بـ «شمويل» فهي بشارة بسائر الأنبياء الذي بُعثوا فيهم ، ويكونون كلُّهم مثل موسى عليه السلام ، وكلُّهم قد أُنزل عليهم كتابٌ مثلُ كتابِ موسى عليه السلام.

المثال الثالث: قوله في التوراة: (جاء الله تعالى من طُور سيناء ، وأشرق نوره من «سيعير» ، واستعلن من «جبال فاران» ، ومعه ربوات المقدسين).

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل السَّراة الذي يسكنه «بنو العيص» الذين آمنوا بعيسى ، ويعلمون أن في هذا الجبل كان مُقام المسيح ، ويعلمون أن سيناءَ هو جبل الطور ، وأما «جبال فاران» فهم يحملونها على جبال الشام ، وهذا من بَهتهم وتحريف التأويل ، فإن «جبال فاران» هي

[1] تسوسهم من ساس ، أي تولى القيادة والرئاسة. انظر «المعجم الوسيط».

جبال مكة ، وفاران اسم من أسماء مكة ، وقد دل على هذا نصُّ التوراة أن إسماعيل لما فارق أباه سكن في «برية فاران» ، ولفظُ التوراة: (أن إسماعيل أقام في «برية فاران» ، وأنكحته أُمُّـهُ امرأةً من أرض مِصر).

فثبت بنص التوراة أن «جبال فاران» مسكنٌ لولد إسماعيل ، وإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوةٍ تَنزل على «جبال فاران» لزِم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها ، ومن المعلوم بالضرورة أنها لم تَنزل على غير محمد ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام ، وهذا من أظهر الأمور بحمد الله تعالى.

فصلٌ ، ومما يدل على غَلطِ أفهام هذه الأمة الغضبية وقلة فقههم وفساد رأيهم وعقولهم - كما جاء في التوراة (أنهم شعبٌ عادِمو الرأي ، فليس فيهم فطانة) - أنهم سمعوا في التوراة: (بُكورُ ثمارِ أرضك تُحمِل إلى بيت الله ربك ، ولا يُنضَج الجدي بلبن أمه) ، والمراد من ذلك أنهم أُمِروا عَقِيب افتراض الحج إلى بيت المقدس عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجُّوا أبكار أغنامهم[١] وأبكار مُستغَلات أرضهم[٢] ، لأنه كان فُرِض عليهم قبل ذلك أن تبقى سُخولةُ[٣] البقر والغنم وراء أمها سبعة أيام ، وفي اليوم الثامن فصاعدًا يَصلُح أن تكون قربانا ، فأشار في هذا النص بقوله: (لا يُنضَج الجدي بلبن أمه) إلى أنهم لا يُبالِغون في إطالة مكث باكور[٤] أولاد البقر والغنم وراء أمها ، بل يستصحبون أبكارهن اللاتي قد عبَرن سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا إلى بيت المقدس ليتخذوا منها القرابين.

---

[١] أبكار أغنامهم أي أول نَتاجها.

[٢] أبكار مستغلات أرضهم أي أول نَتاجها.

[٣] سخولة جمع سخلة وهي صغار الغنم والبقر بعد ولادتها. انظر «المعجم الوسيط».

[٤] باكور أولاد البقر أي أول نتاجها.

فتوَهَّم المشايخ البُلْهُ أن الشرع يريد بالإنضاج إنضاج الطبيخ في القدر ، وأنهم نُهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن ، ولم يكْفهم هذا الغَلَط حتى حرَّموا أكل سائر اللُّحمان باللبن ، فألغوا لفظ الجدي وألغوا حليب أمه ، وحمَّلوا النص ما لا يحتمل ، وإذا أراد أن يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كُلاًّ منهما على حدة ، والأمر في هذا ونحوِه قريب.

فصلٌ ، ولا يُستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة على المُحال واتفاقهم على أنواع الضلال ، فإن الدولة إذا انقرضت عن أمةٍ باستيلاء غيرها عليها وأخذِها بلادَها انطمست معالمُ دينها واندرست آثارها ، فإن الدولة إنما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافَّات[1] وإخراب البلاد وإحراقها ، ولا تزال هذه الأمور متواترة عليها إلى أن تعود[2] عُلومُها جهلا ، وعزها ذلا ، وكثرتها قلة ، وكلما كانت الأمة أقدم واختَلفت عليها الدول المتناولة لها بالذُّل والصَّغار كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها أوفر.

وهذه الأمة أوفرُ الأمم حظا من هذا الأمر لأنها من أقدم الأمم ، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكشدانيين والكِلدانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى وآخر ذلك المسلمون ، وما من هذه الأمم إلا من طلب استئصالهم وبالغ في إحراق بلادهم وكتبهم وقطع آثارهم إلا المسلمين ، فإنهم أعدل الأمم فيهم وفي غيرهم ، حِفظا لوصية الله لهم حيث يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنَّكم شنآن قوم

[1] المصافَّات أي صفوف الجيش ، ومقصود المؤلف تتابع الحروب عليهم ، وانظر «المعجم الوسيط».

[2] في المطبوع (يعود) ، والمثبت من نسخة علي.

على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ ، وصادف الإسلام[1] هذه تحت ذمة الفرس وذمة النــصارى ، بحيث لم يَبقَ لهم مدينة ولا جيش ، وأعزُّ ما صادَفه الإسلام من هذه الأمة يهودُ خيبر والمدينة وما جاورها ، فإنهم إنما قصدوا تلك الناحية لِما كانوا وُعِدوا به من ظهور رسول الله ﷺ بها ، وكانوا يُقاتلون المشركين من العرب فيستنصرون عليهم بالإيمان برسول الله ﷺ قبل ظهوره ، ويَعِدونهم بأنه سيخرج نبي نتَّبِعه ونقتُلكم معه قتل عادٍ وإرم ، فلما بعث الله عز وجل نبيه ﷺ سبقهم إليه من كانوا يحاربونهم من العرب ، فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه.

وأشدُّ ما على هذه الأمة من ذلك ما نالهم من ملوك العصاة وغيرِهم من ملوك الإسرائيليين ، الذين قتلوا الأنبياء وبالـغوا في تطلُّبهم ، وعبدوا الأصنام ، وأحضروا من البلاد سدَنتها ليُعلِّموا رُسومَها في العبادة[2] ، وبنوا لها البِيَعَ والهياكل ، وعكفوا على عبادتها ، وتركوا أحكام التوراة أعصارا متصلة[3].

فإذا كان هذا تواتُر الآفات على دينهم من قِبَلِ ملوكهم ؛ فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم وإحراقهم كتبهم ومنعهم من القيام بدينهم؟

فإن الفرس كثيرا ما منعوهم من الختان ، وكثيرا ما منعوهم من الصلاة ، لمعرفتهم بأن مُعظم صلاة هذه الطائفة دعاء على الأمم بالبوار ، وعلى العالم بالخراب ، فلما رأت هذه الأمة الجِدَّ من الفرس في منعهم من الصلاة

[1] صادف الإسلام هذه الأمة أي قابلها على غير موعد. انظر «المعجم الوسيط».

[2] أي ليُعلِّموا الناس صفة عبادة تلك الأصنام.

[3] أي عصورا متواصلة.

اخترعوا أدعية سموها «الحزَّانة» ، وصاغوا لها ألحانا ، وصاروا يجتمعون في أوقات صلواتهم على تلحينها وتلاوتها ، وسمَّوا القائم بها «الحـزَّان».

والفرقُ بينها وبين الصلاة أن الصلاة بغير لحن ، والمصلي يتلو الصلاة وحده ولا يجهر معه غيره ، والحزَّان يشاركه غيره في الجهر بالحزَّانة ، ويعاونونه في الألحان.

وكانت الفرس إذا أنكرت ذلك منهم قالت اليهود: (إنا ننعي[١] أحيانا وننوح على أنفسنا) ، فيتركونهم وذلك.

فلما قام الإسلام وأقرَّهم على صلواتهم استصحبوا تلك الحزَّانة ولم يُعطِّلوها.

فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة ، يَعرف بها المسلم الحنيفُ قدر نعمة الله عز وجل عليه ، وما مَنَّ به عليه من العلم والإيمان ، ويهتدي بها من أراد الله تعالى هدايته من طالبي الحق من هذه الأمة.

وبالله التوفيق.[٢]

---

[١] في نسخة عزير (نُغَنِّي) ، والمثبت من نسخة علي.

[٢] تم الكتاب بحمد الله ، وقد تكلم غير ابن القيم رحمه الله من علماء المسلمين في بيان تلبيس ابليس على اليهود ، كابن الجوزي رحمه الله في كتابه «تلبيس إبليس» ، باب: «ذِكر تلبيس إبليس على اليهود» ، فليرجع إليه من أراد الاستزادة.

نبذة مختصرة عن أصول العقيدة

الإسلامية

تأليف الفقير إلى عفو ربه الغني

ماجد بن سليمان ، رحمه الله

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد:

فإن العقيدة الإسلامية تقوم على ستة أركان ، وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[١] ، وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[٢] الآية.

ودليل القدر قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.[٣]

والدليل على هذه الأركان من السنة النبوية حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

---

[١] سورة البقرة: ١٧٧ .

[٢] سورة البقرة: ٢٨٥ .

تنبيه: لما كانت سورة البقرة تحوي أصول الإيمان كان شأنها عظيما ، فقد أخبر النبي ﷺ أنها لا تستطيعها السحرة ، أي لا تُطيق سماعها ، ولا ينفُذ سحرُهم فيمن حافظ عليها ، وفي الآخرة تأتي كأنها سحابة تظلل صاحبها.

[٣] سورة القمر : ٤٩ .

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له ؛ يسأله ويُصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

وفي آخر الحديث قال النبي ﷺ لعمر: يا عمر ، أتدري من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم.[١]

والإيمان له شعب كثيرة تتفرع من هذه الأركان الستة التي هي بمثابة الساق للشجرة ، وأما الشعب فهي بمثابة الأغصان ، **وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الشعب في قوله: الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان.**[٢]

وقد جمع القاضي عياض[٣] رحمه الله هذه الشعب البِضع والستين[٤] ، فقال:

هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن ، فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات ، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة:

---

[١] رواه مسلم (٨).

[٢] رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) ، واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] هو العلامة عالم المغرب عياض بن موسى بن عياض ، القاضي أبو الفضل اليحصُبي السبتي ، مات سنة ٥٤٤ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٤/٦٧).

[٤] جاء في رواية أخرى أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، وسيأتي الجمع بين اللفظين قريبا إن شاء الله.

١. الإيمان بالله ، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته ، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء
٢. والإيمان بملائكته
٣. وكتبه
٤. ورسله
٥. والقدر خيره وشره
٦. والإيمان باليوم الآخر ، ويدخل فيه المسألة في القبر ، والبعث ، والنشور ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار
٧. ومحبة الله
٨. والحب والبغض فيه
٩. ومحبة النبي ﷺ
١٠. واعتقاد تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته
١١. والإخلاص ، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق
١٢. والتوبة
١٣. والخوف
١٤. والرجاء
١٥. والشكر

١٦. والوفاء

١٧. والصبر

١٨. والرضا بالقضاء

١٩. والتوكل

٢٠. والرحمة

٢١. والتواضع ، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير

٢٢. وترك الكِبر والعُجب

٢٣. وترك الحسد

٢٤. وترك الحقد

٢٥. وترك الغضب

- وأعمال اللسان ، وتشتمل على سبع خصال:

١. التلفظ بالتوحيد

٢. وتلاوة القرآن

٣. وتعلم العلم

٤. وتعليمه

٥. والدعاء

٦. والذكر ، ويدخل فيه الاستغفار

٧. واجتناب اللغو

- وأعمال البدن ، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة ، منها ما يختص بالأعيان[١] ، وهي خمس عشرة خصلة:

١. التطهير حِسًّا وحكما ، ويدخل فيه اجتناب النجاسات

٢. وستر العورة

٣. والصلاة فرضا ونفلا

٤. والزكاة كذلك

٥. وفك الرقاب

٦. والجود ، ويدخل فيه إطعام الطعام ، وإكرام الضيف

٧. والصيام فرضا ونفلا

٨. والحج والعمرة كذلك

٩. والطواف

١٠. والاعتكاف

١١. والتماس ليلة القدر

---

[١] أي المكلَّفين.

١٢. والفِرار بالدين ، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك

١٣. والوفاء بالنذر

١٤. والتحري في الأيمان

١٥. وأداء الكفارات

- ومنها ما يتعلق بالأَتباع[١] ، وهي ست خصال:

١. التعفف بالنكاح

٢. والقيام بحقوق العيال

٣. وبر الوالدين ، وفيه اجتناب العقوق

٤. وتربية الأولاد

٥. وصلة الرحم

٦. وطاعة السادة

٧. أو الرفق بالعبيد

- ومنها ما يتعلق بالعامة ، وهي سبع عشرة خصلة:

١. القيام بالإمرة مع العدل

٢. ومتابعة الجماعة

---

[١] أي الذين هم تحت يد المكلف ، من ولد وزوجة ورقيق ونحوه.

٣. وطاعة أولي الأمر

٤. والإصلاح بين الناس ، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة

٥. والمعاونة على البر ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٦. وإقامة الحدود

٧. والجهاد ، ومنه المرابطة

٨. وأداء الأمانة ، ومنه أداء الخُمُس

٩. والقرض مع وفائه

١٠. وإكرام الجار

١١. وحسن المعاملة ، ومنه جمع المال من حِلِّه

١٢. وإنفاق المال في حقه ، ومنه ترك التبذير والإسراف

١٣. ورد السلام

١٤. وتشميت العاطس

١٥. وكف الأذى عن الناس

١٦. واجتناب اللهو

١٧. وإماطة الأذى عن الطريق

فهذه تسع وستون خصلة ، ويمكن عدها تسعا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضُم بعضه إلى بعضٍ مما ذُكر ، والله أعلم.[1]

أقول: وفي هذا البحث المختصر وددت أن أشارك بمشاركة متواضعة بشرح ميسر لأركان الإيمان ، والتي تمثل أسس العقيدة الإسلامية ، التي من فهِمها فقد فهِم دين الإسلام وانفتح له بابه ، وقبل الدخول في هذا رغِبت أن أُوضِّح مفهومين مُهمَّين ، وهما مفهوم **الغاية من الخلق** ، ومفهوم **العبادة**.

الغاية من الخلق

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق – الجن والإنس – لحكمة عظيمة وغاية جليلة ، وهي عبادته سبحانه وتعالى ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ، وقال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملِك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ ، وقال تعالى ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى﴾ ، أي: أَحسِب الإنسان أن يُترك هملا ، لا يُؤمر ولا يُنهى ، ولا يُحاسب ولا يُعاقب؟

مفهوم العبادة في الإسلام

العبادة هي التذلل لله عز وجل محبة وتعظيما ، بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه ، كما قال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ ، أي: ما أُمِر الناس في سائر الشرائع إلا ليعبدوا الله وحده ، ويكونوا حنفاء ، أي مائلين عن الإشراك مع الله في العبادة إلى التوحيد والإخلاص لله في

[1] نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري» (١/٦٨-٦٩) في شرح الحديث المتقدم.

سائر العبادات ، ويقيموا الصلاة ، ويؤدوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين ونحوهم ، وذلك دين القيِّمة ، أي دين الاستقامة ، وهو الإسلام.

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك.

وبعد: فأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان

٢١ ، ربيع الأول لعام ١٤٣٣ هجري

أركان الإيمان

الركن الأول: الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى

الثاني: الإيمان بربوبيته

الثالث: الإيمان بألوهيته

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته

تفصيل

الأول: الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى

دل على وجوده تعالى الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده تعالى فإن كل مخلوق قد فُطِر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، ومصداق هذا من كتاب الله قوله ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾[1] .

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه طارىء ، لقول النبي ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه.[2]

ولهذا نجد أن الإنسان بطبيعته وفطرته وبدهيته إذا أصابه الضُّر قال (يا الله) ، وقد ذُكر عن بعض الملاحدة أنه إذا أصابه شيء قال على فلتات لسانه (يا الله) من غير أن يشعر ، لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب عز وجل.

فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على وجود الله.

وقد أقر المشركون في عهد النبي ﷺ بوجود الله تعالى ، كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3] ، والآيات في هذا الباب كثيرة.

---

[1] سورة الأعراف: ١٧٢ .

[2] رواه البخاري (١٣٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] سورة الزخرف: ٨٧ .

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى فلأن هذه المخلوقات سابِقها ولاحِقها لابد لها من خالقٍ أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسِها لأن العدم لم يخلُق نفسه ، فإنه قبلَ وجودِه معدوم ، فكيف يكون خالقًا لغيره من الموجودات؟!

كذلك فإن وجود تلك المخلوقات صدفة بغير مُوجِد ممتنع لسببين ؛ **الأول**: أن كل حادِثٍ لابد له من مُحْدِث ، دلَّ على ذلك العقل والشرع ، قال تعالى ﴿أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[1].

والثاني: أن وجودها على هذا النظام البديع ، والتناسق المتآلف ، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها ، وبين الكائنات بعضها مع بعض ، بلا اضطراب ولا تصادم ؛ يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صدفةً من غير مُوجِد ، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟! استمع إلى قول الله تعالى ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[2].[3]

يُذكر عن **أبي حنيفة** رحمه الله – وكان معروفا بالذكاء – أنه جاءه قوم من الملاحدة الدَّهرية[4] ويُسمَّون بالسُّمَنِّية[5] الذين ينكرون وجود الخالق جل وعلا ، وكان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الدُّهرية ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه ، فبينما هو يوماً في مسجده قاعدٌ إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله ، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم.

فقالوا له: هات.

فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتَوَشَتْها[6] في لُجّةِ البحر[7] أمواجٌ متلاطمةٌ ، ورياحٌ مختلفةٌ ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا: لا ، هذا شيء لا يقبله العقل.

---

[1] سورة الطور: ٣٥ .

[2] سورة يٰس: ٤٠ .

[3] انظر في هذا الباب كتاب «إبداع الخالق في نظم خلقه دليل على وحدانيته» ، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزهراني ، الناشر: دار التوحيد – الرياض.

[4] الدَّهري – بفتح الدال وتشديدها – هو الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة ، والدُّهري – بضم الدال وتشديدها – هو الرجل المُسِن. انظر «لسان العرب» ، مادة: دهر.

[5] السُّمَنِّيَّةُ قوم من أهل الهند دُهريُّون ، وقال الجوهري: فِرقة من عبدة الأصنام تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار. انتهى المراد من «لسان العرب» ، مادة: سمن.

[6] أي أحاطت بها وجعلتها في وسَطِهَا. انظر «لسان العرب» ، مادة: حوش.

[7] لُجَّةِ البحر أي وسطه حيث يكثر ماؤه ولا تُرى اليابسه منه.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر ، مستوية من غير متعهد ولا مجري ؛ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتبايُن أكنافِها[١] من غير صانع وحافظ؟!

فبكوا جميعًا وقالوا: صدقت ، وأغمدوا سيوفهم وتابوا.

وسُئل **الشافعي** رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الصانع؟
فقال: ورقة التوت ، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟
قالوا: نعم.
قال: فتأكلها دودة القز[٢] فيخرج منها الإبريسم[٣] ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البَعْر[٤] ، ويأكلها الظباء فيخرج منها المِسْك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟!
فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وكان عددهم سبعة عشر.

وضرب **أحمد بن حنبل** رضي الله عنه مثلاً قلعة حصينة ملساء ، لا فُرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز[٥] ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير.
وقد عَنى بالقلعة: البيضة ، وبالحيوان: الفرخ.

وسأل هارون الرشيد **مالكًا** عن وجود الصانع ، فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.
فهذه نقولات عن الأئمة الأربعة في هذا الباب.

وسُئل أعرابي فقيل له: بم عرفت ربك؟

فقال: البَعرة تدل على البعير ، والروث على الحمير ، والأثر يدل على المسير ، فسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير؟

ورؤي ابن هانئ[٦] في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غَفَرَ لي بأبيات قلتها في النَّرجس ، وهي:

---

[١] أي أطرافها.
[٢] القز هو الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج ، ودودة القز أي دودة الحرير التي تنسج الحرير. انظر «المعجم الوسيط».
[٣] الإبريسم هو أحسن الحرير. انظر «المعجم الوسيط».
[٤] البعرة هي رجيع الغنم والإبل.
[٥] الإبريز هو الذهب الخالص. انظر «المعجم الوسيط».
[٦] وهو المكنى بأبي نواس.

تأمّل في نباتِ الأرض وانظر   إلى آثارِ ما صنع المليكُ
عيونٌ من لُجينٍ[1] شاخصاتٌ[2]   بأحداقٍ[3] كما الذهبُ السبيكُ[4]
على قُضُبِ الزَّبرجَدِ شاهداتٌ[5]   بأن الله ليس له شريكُ
وأن محمدا عبدٌ رسولٌ   إلى الثقلين[6] أرسله المليكُ[7]

ومن عجائب خلق الله البعوضة ، فقد أودع الله فيها من الحكم الشيء الكثير ، فأودع الله فيها قوة الحافظة والفكر ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وأودع فيها جوفا وعروقا ومخا وعظاما ، فسبحان من قدر فهدى ، ولم يترك شيئا سدى.

قال الزمخشري مبتهلا:

يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحها   في ظلمةِ الليلِ البهيمِ[8] الأليلِ[9]
ويرى مناطَ[10] عروقِها في نَحرِها   والمخَّ من تلك العظامِ النُّحَّلِ[11]
ويرى خرير الدم في أوداجِها[1]   متنقِّلا من مفصلٍ في مفصلِ

---

[1] اللجين هو الفضة ، شبّه الناظم زهرة النبات بها لأنها تشبه الفضة في لونها. «انظر «لسان العرب» ، مادة: لجن.

[2] يقال شَخَصَ الرجل ببصره إذا فتح عينيه وحدّ نظره ورفع جفنيه فلم يطرِف ، وقد وصف الناظم بعض الأزهار في إحداقها بأنها شاخِصات كعين الإنسان إذا شخصت وأحدقت ببصرها. انظر «لسان العرب» ، مادة: شخص.

[3] الحدَقة تطلق على حدقة العين وهي سوادها ، وقد شبّه الناظم تلك الأزهار بالأحداق. انظر «لسان العرب» ، مادة: حدق.

[4] سبيك أي مسبوك ، وهو الذهب المفرغ في قالَب. انظر «لسان العرب» ، مادة: سبك.

[5] قُضُب جمع قضيب ، والمقصود غصن النبات ، والزبرجد هو الزُّمُرُّدْ ، جوهر معروف ، وقد وصف الناظم الغصن بالزمرد للمعانه وبريقه وبهاء منظره. انظر «لسان العرب» ، مادة: «قضب» ، و «زبرجد» ، وكذا «مختار الصحاح» للرازي ، مادة: «زبرجد».

[6] الثقلان هما الإنس والجن.

[7] ذَكر بعض المفسرين هذه القصص عن الشافعي وأحمد وهارون الرشيد وأبي نواس عند تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.
كما ذكر هذه الشواهد الفخر الرازي في الدلالة على وجود الصانع في كتابه «مفاتيح الغيب» (١٠٨/٢ – ١٠٩) ، الناشر: دار الفكر ، ط ١ ، سنة ١٤٠١ هـ .

[8] البهيم هو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر. انظر «اللسان» ، مادة: بهم.

[9] أليل أي شديد الظلمة. انظر «اللسان» ، مادة: ليل.

[10] المناط من ناطَ أي علَّق ، يقال: ناطَ سِلاحه بالشجرةِ أي علقه عليها ، والمناط هو ما يُعلَّق فيه الشيء ، ومناط العروق في البيت المذكور هو ما تلتحم فيه العروق من جوانبها كأنها معلقة بها.

[11] النُّحَّلِ جمع نَحِيل أي رقيق ودقيق. انظر «لسان العرب» ، مادة: نحل.

ويرى وصول إذا الجنين ببطنِها — في ظلمةِ الأحشا بغير تَمَقُّلِ[٢]

ويرى مكان الوطءِ من أقدامِها — في سيرها وحثيثها المستعجلِ

ويرى ويسمعُ حِسَّ ما هو دونَها — في قاع بحرٍ مظلمٍ متهوِّلِ[٣]

امنُن علي بتوبة تمحو بها — ما كان مني في الزمانِ الأولِ[٤]

وعلى هذا فيقال لمن جحد وجود الله في هذه الأزمنة: هل ما أُنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها محض صدفة؟

ولو حدَّثك شخصٌ عن قصرٍ مشيدٍ ، أحاطت به الحدائق ، وجرت بينها الأنهار ، ومُلئ بالفُرُشِ والأسِرَّة ، وزُيِّـن بأنواع الزينة من مُقوّماته ومُكمّلاته ، وقال لك : إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه ، أو وُجد هكذا صدفة بدون مُوجد ؛ أكنت مُصَدِّقه؟ الجواب: لا ، قطعا.

أيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه وأفلاكه وأحواله ونظامه البديع الباهر قد أوجد نفسه ، أو وُجد صدفة بدون موجد؟!

والحاصل أنه إذا لم يمكن أن توجِد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ، ولا أن توجَد صدفة ؛ تعين أن يكون لها موجِد ، وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور ، حيث قال ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾[٥] ، يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم ، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى.

ولما سمع رجل من الصحابة يقال له جبير بن مطعم رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ

---

[١] الودْج عرق يجري فيه الدم. انظر «لسان العرب» ، مادة: ودج.

[٢] المُقلة هي سواد العين وبياضها ، والتمقل هو تقليب العين في المنظور إليه وتحديق النظر فيها ، يقال: (تمقل في البضاعة) أي قلَّب نظره فيها ، ومقصود الناظم أن الله تعالى يرى ما في أحشاء البعوضة بغير كلفة.

[٣] أي كثير الأهوال.

[٤] ذكرها شهاب الدين أحمد الأبشيهي في كتابه «المستطرف في كل فن متستظرف» (ص ٣٧٤) ، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت ، ط ١ ، سنة ١٤١٣ هـ .

وكذا ذكرها الزمخشري مختصرة في تفسيره المعروف بـ «الكشاف» (ص ١١٦٨) ، بتحقيق: مصطفى حسين أحمد ، الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٤٠٧ هـ.

[٥] سورة الطور : ٣٥ .

خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[1] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ فقال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[2]

فصل

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى ؛ فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك ، ولأن ما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وكذا ما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأيضا فإن ائتلاف القرآن وعدم تناقضه وتصديق بعضه بعضا ؛ يدل دلالة قاطعة على أنه من رب حكيم عليم ، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[3] ، فهذا دليل أيضا على وجود من تكلم بالقرآن وهو الله تعالى.

فصل

وأما دلالة الحس على وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، إذ أن إجابة الدعاء تدل على أن هناك ربا سمع دعاء من دعاه فأجابه ، فإنه لم يدعُ إلا الله ، قال الله تعالى ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا.

---

[1] سورة الطور : ٣٥ – ٣٧ .

[2] رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣) ، (٤٠٢٣).

[3] سورة النساء: ٨٢ .

[4] سورة الأنبياء : ٧٦ .

[5] سورة الأنفال : ٩ .

قال أنس: ولا والله ، ما نرى في السماء من سحابٍ ولا قَزَعَةٍ[1] ولا شيئا ، وما بيننا وبين سَلْعٍ[2] من بيتٍ ولا دار ، قال: فطلعت من ورائه[3] سحابة مثل التُّرسِ[4] ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً[5].

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام[6] والجبال والظِّراب[7] والأودية ومنابت الشجر.

قال: فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس.[8]

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا لمن صدق في لجوئه إلى الله تعالى وأتى بأسباب الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى بالمعجزات ويشاهدها الناس أو يسمعون بها ؛ برهان قاطع على وجود مرسلِهم ، وهو الله تعالى ، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر ، يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك: آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق أثنى عشر طريقًا يابسًا ، والماء بينها كالجبال ، قال الله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[9].

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله ، قال الله تعالى ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[10].

---

[1] القزعة هي القطعة من الغيم. انظر «النهاية».

[2] سلع اسم جبل بالمدينة.

[3] أي من وراء سلع.

[4] الترس قطعة من الحديد مستديرة يتَّقي بها المحارب السهام. انظر «النهاية».

[5] قال ابن الأثير في «النهاية»: قيل: أراد أسبوعا ، من السبت إلى السبت ، وقيل: أراد بالسبت مدة من الزمان قليلة كانت أو كثيرة.

[6] الآكام جمع أكمة وهي الرابية. انظر «النهاية». قلت: والرابية معروفة ، وهي المكان المرتفع ، وتسمى بالربوة أيضا.

[7] الظراب جمع ظرِب ، وهو الجبل الصغير. انظر «النهاية».

[8] أخرجه البخاري (١٠١٩) ومسلم (٨٩٧).

[9] سورة الشعراء: ٦٣ .

[10] سورة المائدة: ١١٠ .

ومثال ثالث حصل لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية ، فأشار إلى القمر ، فانفلق فرقتين فرآه الناس ، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1] ، فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم ؛ تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

[1] سورة القمر: ١- ٢ .

الثاني: الإيمان بربوبيته

الإيمان بربوبية الله تعالى يعني الإيمان بأن الله وحده هو الرب لا شريك له ولا معين ، والرب: من له الخلق والملك والأمر — أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا انفراده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1] ، وقال ﴿بديع السماوات والأرض﴾[2] ، وقال ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾.[3]

وأعظم ما خلق الله عشرة ، وهي السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والناس والدواب والمطر والرياح ، وقد تمدح الله تعالى بخلقها كثيرا في القرآن لاسيما في أوائل بعض السور كسورة الجاثية ، قال تعالى ﴿ حمٰ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾.

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾[4] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[5] ، وقوله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[6].

ودليل انفراده بالأمر قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقال ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقوله له كن فيكون﴾[7] ، وقال ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[8] ، وقوله ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾[9].

وسُئل أعرابي: بم عرفت ربك؟

فقال: (بنقض العزائم وصرف الهمم) ، وصدق ذلك الأعرابي ، فالإنسان يعزم أحيانا على الشيء وفي لحظة يجد نفسه قد نقض عزمه وعزم على تركه ، وقد يهم الإنسان بالشيء متجها إليه ثم ينصرف بدون سبب ، وهذا يدل على أن للأمور مدبرا فوق تدبير الإنسان ، وهو الله عز وجل.

---

[1] سورة الأعراف: ٥٤ .

[2] سورة البقرة: ١١٧ .

[3] سورة فاطر: ١ .

[4] سورة الإسراء: ١١١ .

[5] سورة الملك: ١ .

[6] سورة فاطر: ١٣ .

[7] سورة يٰس: ٨٢ .

[8] سورة السجدة: ٥ .

[9] سورة هود: ١٢٣ .

فصل

ومما يدل على تفرد الله سبحانه بالأمر ؛ قدرته تعالى على إجراء تأثير ذلك الأمر على خلاف العادة ، ومن ذلك أنه جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ، قال الشنقيطي رحمه الله:
ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾[1] ، فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادا من حرها ، في الوقت الذي هي فيه كائنة بردا وسلاما على إبراهيم ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقةً إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض ، وأنه يُسبِّب ما شاء من المُسبِّبات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.
ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سببا لشيء آخر مع أنه مناف له ، كجعله ضربَ ميتِ بني إسرائيل ببعضٍ من بقرة مذبوحة سببا لحياته[2] ، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته ، إذ لا تُكسب الحياة من ضربِ ميتٍ ، وذلك يوضح أنه جل وعلا يُسبب ما شاء من المسبَّبات على ما شاء من الأسباب ، ولا يقع تأثير ألبتة إلا بمشيئته جل وعلا.
انتهى كلامه رحمه الله.[3]

فصل

ولم يُعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد لما يقول ، كما حصل من فرعون حين قال لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[4] ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إله غَيْرِي﴾[5] ، لكن ذلك ليس عن عقيدة ، بل عن تَكبُّرٍ وتَجَبُّرٍ ، قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[6] ، وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾[7].

---

[1] سورة الأنبياء: ٦٩ .

[2] انظر تفسير «أضواء البيان» ، عند قوله تعالى من سورة مريم ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

[3] يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإذ قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾.

[4] سورة النازعات: ٢٤ .

[5] سورة القصص: ٣٨ .

[6] سورة النمل: ١٤ .

[7] سورة الإسراء: ١٠٢ .

فصل

وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يُقِـرُّون بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة ، فأنكر الله عليهم ذلك ، لأن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام حتى يُضم إليه إفرادُه بالعبودية ، قال تعالى لنبيه حاثا له على أن يقول للمشركين المعترفين لله بالربوبية ، المشركين معه غيره في العبادة ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُون * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون﴾[١].[٢]

---

[١] سورة المؤمنون: ٨٤ – ٨٩ .

[٢] انظر ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآيات ، وكذا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير آية يونس: ٣١ ، وآية يوسف: ١٠٦ ، وآية الإسراء: ٩ من ابتداء قوله: ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا ... الخ.

الثالث: الإيمان بألوهيته

الإيمان بألوهية الله يعني الإيمان بأنه وحده الإله الحق لا شريك له ، المستحق للعبادة دون مَن سواه ، ومعنى «الإله» أي المألوه ، وهو المعبود حُبًا وتعظيمًا ، قال الله تعالى ﴿و إلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمٰن الرَّحِيمُ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إله إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] ، وكل ما اتُّخذ إلٰها يُعبد من دون الله أو مع الله فعبادته باطلة ، قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرِ﴾[3].

فصل في براهين توحيد الألوهية

واعلم رحمك الله أن البرهان الأعظم على استحقاق الله تعالى لأن يُعبد وحده دون ما سواه هو تفرده تعالى بربوبية هذا الكون[4] ، لا شريك له في ذلك ولا معين ، والرب هو من بيده الخلق والملك والرزق والأمر – أي أمر تدبير هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا رازق إلا هو ، ولا آمر إلا هو ، قال تعالى مبينا تفرده بالخلق ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿بديع السماوات والأرض﴾[6] ، بديع أي مبدِع[7] ، والمعنى مُوجد السماوات والأرض.

وقال تعالى ﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾[8] ، ومعنى فاطر أي موجد[9].

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك﴾[10] ، وقوله ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾[11] ، وقوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[12].

---

[1] سورة البقرة: ١٦٣ .

[2] سورة آل عمران: ١٨ .

[3] سورة الحج: ٦٢ .

[4] سيأتي ذكر براهين أخرى بعد هذا الفصل.

[5] سورة الأعراف: ٥٤ .

[6] سورة البقرة: ١١٧ .

[7] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[8] سورة فاطر: ١ .

[9] انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

[10] سورة الإسراء: ١١١ .

[11] سورة الملك: ١ .

[12] سورة فاطر: ١٣ .

ودليل انفراده بالأمر – ويعبر عنه أيضا بالتدبير – قوله تعالى ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ، وقوله ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقوله له كن فيكون﴾[1] ، وقوله ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾[2] ، وقوله ﴿وإليه يرَجع الأمر كله﴾[3].

فتدبير هذا الكون من إحياءٍ وإماتةٍ ، ومطرٍ وجــدبٍ ، وغنًى وفقرٍ ، وصحةٍ ومرضٍ ، وأمنٍ وخوفٍ ، وغير ذلك مما يجري في هذا الكون ؛ إنما هو بأمر الله تعالى.

ودليل انفراده بالرزق قوله تعالى ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾[4].

وقد كانت دعوة الرُّسل – عليهم الصلاة والسلام – مُنصَبَّةً على هذا النوع من التوحيد – أي توحيد الألوهية – ، وكانوا قاطبة يقولون لأقوامهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰه غَيْرُهُ﴾[5] ، ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرون بهم ويستغيثون.

وضد توحيد الألوهية الشرك في عبادته تعالى ، كعبادة القبور ، بدعائها ، والذَّبح لها ، والنّذر لها ، والطَّواف بها ، والتَّمسُّح بأعتابها ، ونحو ذلك من الأفعال ، فهذه من الأفعال الشركية التي تنقض إيمان العبد بأن الله وحده هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه ، وهو المُعبَّر عنه بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة.

فصل في ذكر البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك في عبادة الله

وقد أبطل الله تعالى اتخاذَ المشركين آلهة يعبدونها معه ببراهين شرعية وعقلية كثيرة ، فأما الشرعية فمثل قوله تعالى ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾[6] ، وقوله ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[7].

وأما البراهين العقلية على بطلان الشرك فكثيرة ، منها:

الأول: أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تَخْلُق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا تملك شيئًا من

[1] سورة يٰس: ٨٢ .
[2] سورة السجدة: ٥ .
[3] سورة هود: ١٢٣ .
[4] سورة الروم: ٤٠ .
[5] سورة الأعراف: ٥٩ .
[6] سورة المائدة: ٧٢ .
[7] سورة الزمر: ٦٦ .

السماوات ، ولا تشارك في ملكيته ، قال الله تعالى ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[١] ، وقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم من دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم من ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[٢] ، وقال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[٣].

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفَهِ السَّفهِ وأبطلِ الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يُجير[٤] ولا يُجارُ عليه ، وهذا يستلزم أن يوحِّدوه بالألوهية كما وحَّدوه بالربوبية ، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾[٥] ، وقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون﴾[٦] ، وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُون﴾[٧].[٨]

---

[١] سورة الفرقان: ٣ .

[٢] سورة سبأ: ٢٢– ٢٣ .

[٣] سورة الأعراف : ١٩١– ١٩٢ .

[٤] يُجِير أي ينقذ ، وقوله: (ولا يُجار عليه) أي لا يستطيع احد أن ينقِذ أحدا من عذابه.. انظر «لسان العرب» ، مادة: جور.

[٥] سورة البقرة: ٢١–٢٢ .

[٦] سورة العنكبوت: ٦١ .

[٧] سورة يونس: ٣١–٣٢ .

[٨] والبراهين العقلية على بطلان الشرك كثيرة ، وقد يسر الله إعداد بحث بعنوان «خمسون دليلا على بطلان دعاء غير الله» ، حشدت فيه جمعا من الأدلة الشرعية والعقلية على بطلان الشرك ، وهو منشور على شبكة المعلومات ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته

مدخل

الإيمان بأسماء الله وصفاته له مكانة عظمى في العقيدة الإسلامية ، فقد تمدح الله كثيرا في كتابه العزيز بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالى ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ، وقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

كما أثنى النبي ﷺ على ربه في مواضع كثيرة من السنة الشريفة ، ونعته فيها بنعوت الجلال وصفات الكمال.

والإيمان بأسماء الله وصفاته يوجب للعبد خشيته ، ومن ثَمَّ عبادته على الوجه الذي يُرضي الله تعالى ، فإن الأمر كما قيل: (من كان بالله أعرف كان له أخوف)[1] ، ولهذا كان العلماء بأسماء الله وصفاته هم أخشى الناس لله تعالى ، كما قال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه الأهمية ؛ وجب على المؤمن الإيمان بها على الوجه المطلوب شرعا ، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، ودليل وجوب إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى قوله ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2] ، ودليل وجوب إثبات صفات الكمال له قوله تعالى ﴿ولله المثل الأعلى﴾[3] ، أي الوصف الكامل ، وقوله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[4].

والإيمان الصحيح بأسماء الله وصفاته يقتضي أمرين ؛ الأول: فهمها كما جاءت ، وضده تحريف معانيها عما تقتضيه اللغة العربية وفهم السلف الصالح لها.

والأمر الثاني: الوقوف في أسماء الله وصفاته عند ما ورد في الكتاب والسنة ، وضده ابتداع اسم أو وصف لله لم يَرِد في أحدهما.

---

[1] رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٨٦) عن أحمد بن عاصم الأنطاكي.

[2] سورة الأعراف: ١٨٠ .

[3] سورة النحل: ٦٠ .

[4] سورة الشورى: ١١ .

خاتمة الركن الأول

ثمرات الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى ، بحيث لا يتعلق بغيره رجاءً ولا خوفاً ، ولا يَعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.[١]

[١] قاله ابن عثيمين رحمه الله كما في «شرح ثلاثة الأصول» ، ص ٩٠ .

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

(الملائكة عالم غيبي مخلوقون ، عابدون لله تعالى ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، خلقهم الله تعالى من نور ، ومنَحهم الانقياد التام لأمره ، والقوة على تنفيذه ، قال الله تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] ، وقال ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[2].

وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج أن النبي ﷺ رُفع له البيت المعمور في السماء ، فسأل جبريل عنه فقال: هذا البيت المعمور ، يُصلِّي فيه كل يوم سبعون ألف مَلَكٍ ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.[3]

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علِمنا اسمه منهم ، كجبريل ، وأما من لم نعلم اسمه فنؤمن بهم إجمالا.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخَلقية ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خُلق عليها وله ست مئة جناحٍ قد سدَّ الأفق.[4]

وقد يتحول المَلَكُ بأمر الله تعالى إلى هيئةِ رجلٍ ، كما حصل لجبريل حين أرسله الله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًا ، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه ، جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد من الصحابة ، فجلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخِذيه ، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ، فأجابه النبي ﷺ ، فانطلق ، ثم لما سأل الصحابة النبي ﷺ عنه قال: هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم.[5]

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط كانوا في صورة رجال)[6].

---

[1] سورة التحريم: ٦ .

[2] سورة الأنبياء: ١٩ – ٢٠ ، ومعنى ﴿لا يستحسرون﴾ أي لا يتعبون ولا يسأمون. انظر «تفسير الطبري».

[3] أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

فائدة: وقد جاء وصفهم في التنزيل بأنهم يصُفون صفوفا إذا قاموا لطاعة ربهم من صلاة وغيرها ، قال تعالى ﴿والصافات صفا﴾ ، وقال تعالى على لسان الملائكة ﴿وإنا لنحن الصافون﴾.

[4] رواه البخاري (٣٢٣٢ ، ٣٢٣٣) ، ومسلم (١٧٤ ، ١٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[5] رواه مسلم (٨).

[6] «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٠ – ٩١ ، بتصرف يسير.

قلت: ولكن هذا التحول من هيئة إلى هيئة لا يكون إلا بأمر الله عز وجل.

وأعظم الملائكة وصْفاً في خَلْقه وخُلُقه هو جبريل عليه السلام ، فقد وصفه الله بأنه ﴿رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾[1] ، أي ذو مكانة عند ربه ، ﴿مُطاعٍ ثَمَّ أمين﴾[2] ، أي مُطاعٍ عند سائر الملائكة ، أمين على الوحي ، وقد وَصفَهُ الله بالقوة الخَلقية في قوله ﴿علمه شديد القوى * ذو مِرّة فاستوى﴾[3] ، والمِـرّةُ هي السلامة والصحة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة ، وذلك يستلزم كمال الخِلقة وحسنها وجمالها ، فهي القوة والصحة المتضمنة صحة وجمالا ، قال ذلك ابن القيم في «الإغاثة»[4].

الرابع: الإيمان بما علِمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امتثالا لأمر الله تعالى ، فأما العامة فكتسبيح الله ، والتَّعبُّد له ليلا ونهارًا بدون ملل ولا فتور ، قال تعالى عنهم ﴿فالتاليات ذكرا﴾[5].

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة ، مثل جبريلَ الأمينُ على وحي الله تعالى ، يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل ، وقد يتنزل أفراد من الملائكة بشيء من الوحي ، قال تعالى ﴿فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا﴾[6] ، أي: تُلقي الذِّكر على الأنبياء لأجل الإعذار – وهو قطع العذر بالتبليغ – ، أو الإنذار.

ومثل ميكائيلَ الموكَـلُ بالقطْرِ ، أي بإنزال المطر.[7]

ومثل المَلَكِ الموكَلُ بالنفخِ في الصُّور[8] ، والمشهور أن اسمه إسرافيل[9] ، والصُّور قرنٌ يُنفخُ فيه كما

---

[1] سورة التكوير: ١٩ – ٢٠ .

[2] سورة التكوير: ٢١ .

[3] سورة التكوير: ٥ – ٦ .

[4] (١٢٩/٢) ، تحقيق الفقي.

[5] سورة الصافات: ٣ .

[6] سورة المرسلات: ٥ – ٦ .

[7] رواه النسائي في «الكبرى» ، كتاب عشرة النساء ، باب كيف تؤنث المرأة ، (٩٠٢٤) ، وأحمد (٢٧٤/١) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وحسنه الشيخ مقبل الوادعي بمجموع طرقه كما في تحقيقه لتفسير ابن كثير (٢٤٢/١) ، وكذا محققو «المسند».

[8] روى الترمذي (٣٢٤٣) وأحمد (٧/٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: كيف أنعم وقد التقم صاحب القَرن القَرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفُخ؟

قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا ، وربما قال سفيان: على الله توكلنا.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وصححه الألباني كما في الصحيحة (١٠٧٩) ، وكذا محققو «المسند».

[9] جزم به ابن جرير رحمه الله كما في تفسير آية الزمَر ﴿ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض﴾ (الآية: ٦٨).

وانظر كلام علماء التفسير عند هذه الآية ، وكذا عند قوله تعالى ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ (الأنعام: ٧٣).

جاء في الحديث[1] ، وذلك عند قيام الساعة وبعث الخلق.

وهؤلاء الثلاثة هم أعظم الملائكة.

وهؤلاء الملائكة مُوكَلون بما فيه حياة ، فجبريل مُوكَلٌ بالوحي الذي فيه حياة القلوب ، وميكائيل مُوكَلٌ بالقطر الذي في حياة الأرض ، وإسرافيل مُوكَلٌ بالنفخ في الصور ، وعنده تكون حياة الأجساد يوم المعاد.

ومن الملائكة أيضا مَلَكُ الموت ، وهو المُوكَلُ بقبض الأرواح عند الموت ، قال تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾.[2]

وملك الموت له أعوان من الملائكة ، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يُـفَرِّطون﴾.[4]

ومعنى يُفرِّطون أي يُضَيِّعون ، أي لا يُضَيِّعون ما وُكِلَ إليهم من مهام.

ومنهم الملائكة السياحون في الأرض ، يلتمسون حِلَقَ الذِّكر ، فإذا وجدوا حَلْقَةَ علمٍ وذكرٍ تنادَوا وجلسوا وحَفُّوا أصحاب الحلْقةِ بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.[5]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالأجِنَّة في الأرحام إذا تمَّ للإنسان أربعةُ أشهرٍ في بطن أمه ، فعندئذ يُرسل الله إليه مَلَكًا ، ويأمرهُ بِكَـتْبِ رزقِهِ وأجلِه وعملِه ، وشقي هو أم سعيد.[6]

وقد ورد أن إسرافيل أحد حملة العرش ، كما روى ذلك أبو الشيخ في كتاب «العظَمة» (برقم ٢٨٨ ، ٤٧٧) بلفظ: «إن ملكا من حملة العرش يقال له إسرافيل ...» ، ولكنه ضعيف الإسناد كما قال ذلك محقق الكتاب رضا الله المباركفوري ، الناشر: دار العاصمة – الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ..

[1] روى أبو داود (٤٧٤٢) والترمذي (٣٢٤٤) واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال أعرابي: يا رسول الله ، ما الصور؟ قال: قَرنٌ يُنفخُ فيه.

وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٠٨٠).

[2] ومن الأخطاء الشائعة تسمية ملَكَ الموت بعزرائيل ، وهذه التسمية لم تثبت لا في الكتاب ولا في السنة ، بل الذي ثبت هو تسميته بملك الموت ، كما في سورة قوله تعالى في سورة السجدة ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ ، فالواجب أن نقف عند كلام الله ولا نتعداه.

انظر للفائدة تفصيلات أخرى في «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله (١/٦٠) وما بعده.

[3] سورة الأنعام: ٩٣ .

[4] سورة الأنعام: ٦١ .

[5] انظر صحيح البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩).

[6] انظر ما رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ومنهم الملائكة المُوكَلون بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها ، لكل شخص ملكان ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، كما قال تعالى ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وإن عليكم لحافظين *كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾[2].

ومنهم الملائكة المُوكَلون بسؤال الميت إذا وضع في قبره ، ويسألانه عن ربه ودينه ونبيه.[3]

ومنهم الملائكة المُوكَلون بخدمة أهل الجنة ، وهم خزنتها أي المؤتمنون عليها ، قال تعالى في أهل الجنة ﴿وَالملاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم من كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[4].

ومنهم الملائكة المُوكَلون بالنار ، ورئيسهم مالك خازن النار ، أي المؤتمن عليها ، قال تعالى على لسان أصحاب النار ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾[5].

ومن الملائكة مَلَكَ الجبال ، الذي أتى النبي ﷺ بعدما لاقى من قومه ما لاقى ، فقال له: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين[6].

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا.[7]

ومنهم الملائكة الزاجرات للسحاب ، تسوقه إلى حيث يريد الله تعالى ، قال تعالى ﴿فالزاجرات زجرا﴾[8].

فالحاصل أن الملائكة تقوم بأمر الله الذي وَكَلَها به بحسبها.

والإيمان بالملائكة يثمرُ ثمرات جليلة منها[9]:

أولا: العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق سبحانه.

---

[1] سورة ق: ١٧ – ١٨ .

روى ابن جرير في «تفسيره» عن مجاهد قال: ملك عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير ، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وقد صحح الشيخ د. حكمت بشير ياسين إسناد هذا الأثر عن مجاهد كما في «التفسير الصحيح ، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (٣٧٨/٤) ، ط ١ ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[2] سورة الانفطار: ١٠-١٢ .

[3] انظر حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري (١٣٧٤).

فائدة: جاء تسميتهما بـ «المنكر والنكير» في حديث رواه الترمذي (١٠٧١) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١) ، وليس في هذه التسمية نكارة ، فإنهما منكران من جهة أن الميت لا يعرفهما ، وقد قال إبراهيم للملائكة ﴿قوم منكرون﴾ ، الذاريات: ٢٥ ، قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية».

[4] سورة الرعد: ٢٣– ٢٤ .

[5] سورة الزخرف: ٧٧ .

[6] الأخشبان جبلان عظيمان بمكة.

[7] رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

[8] سورة الصافات: ٢ .

[9] هذا الفصل منقول من «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ، ص ٩٢ ، بتصرف يسير.

ثانيا: شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وكَّلَ من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثا: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب ، والكتاب بمعنى (مكتوب) ، والمراد بالكتب هنا الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.[1]

وقد أرسل الله مع كل رسول كتابا ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾[2].

كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، قال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[3].

والمقصود بالإيمان بالكتب في الآية هو الإيمان بها على وجهها الذي أنزلت به على الأنبياء قبل التحريف ، وإلا فمن المعلوم أن جميع الكتب المنزلة قد أصابها التحريف والتبديل إلا القرآن ، قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4].

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور[5] ، نذكرها على سبيل الإجمال ثم نفصل القول فيها:

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها.

الخامس: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد.

تفصيل

الأول: الإيمان بأنها أُنزلت من عند الله حقاً ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾. ، وقال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٤ .

[2] سورة الحديد: ٢٥ .

[3] سورة البقرة: ١٣٦ .

[4] سورة الحجر: ٩ .

[5] يراجع «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ٩٤ ، فقد ذكر الشيخ أربعة أمور ، ومنَّ الله بواحدة.

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1].

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها ، وهي ستة ، صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ ، والزبور الذي أوتيه داود ﷺ ، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، وبعض العلماء يقول إن صحف موسى هي التوراة فتكون خمسة.

وأما ما لم يأت ذكر اسمه من تلك الكتب فنؤمن به إجمالاً.

الثالث: تصديق ما صحَّ من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها ، عملا بقول الله تعالى ﴿يريد الله ليبين لكم **ويهديكم سنن الذين من قبلكم** ويتوب عليكم﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتده**﴾[3].

فائدة

وللعلم ؛ فإن القرآن حاكمٌ ومهيمنٌ على جميع الكتب السابقة ، فهي منسوخة به على وجه الإجمال ، ويستثنى من ذلك العقائد وما أقره القرآن والسنة من الشرائع كما تقدم ، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[4] ، أي حاكمًا عليه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتَمَن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله (المهيمن) ، ويسمى الحاكم على الناس ، القائم بأمورهم ؛ (المهيمن) ، قال المبرد والجوهري وغيرهما: المهيمن في اللغة ؛ المؤتمن.

وقال الخليل: الرقيب الحافظ.

وقال الخطابي: المهيمن ؛ الشهيد.

قال: وقال بعض أهل اللغة: الهيمنة ؛ القيام على الشيء والرعاية له ...

وهكذا القرآن ؛ فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بيانا وتفصيلا ، وبيَّن الأدلة والبراهين على ذلك ، وقـرَّر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرَّر الشرائعَ

[1] سورة البقرة: ١٣٦ .

[2] سورة النساء: ٢٦ .

[3] سورة الأنعام: ٩٠ .

[4] سورة المائدة: ٤٨ .

الكلية التي بُعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبَيَّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبَيَّن ما حُرِّف منها وبُدِّل ، وما فَعله أهلُ الكتابِ في الكتب المتقدمة ، وبَيَّن أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرِّف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه الله ، فهو شاهد في الخبريات ، حاكم في الأمريات.

وكذلك معنى الشهادة والحَكَم ؛ يتضمن إثبات ما أثبته الله من صِدْقٍ ومُحكَم ، وإبطال ما أبطله من كَذِبٍ ومنسوخ ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة ، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن.

ثم إنه مُعجزٌ في نفسِهِ ، لا يَقدِرُ الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول ، وهو نفسه برهان على ما جاء به.

وفيه أيضا من ضربِ الأمثالِ وبيانِ الآياتِ على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جُمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلَّم به الأولون والآخِرون في أصول الدين والعلوم الإلٰهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ؛ لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي – كالمتفلسفة وغيرهم – إلا بعض ما جاء به القرآن ، ولهذا لم تَحتَج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلا عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره[1] ، سواء كان من عِلم المحدَّثين والملهمين ، أو من علم أرباب النظر والقياس ، الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء. انتهى باختصار.[2]

وقال أيضا: وأما القرآن فإنه مُستَقلٌّ بنفسه ، لم يُحْوِجْ أصحابه إلى كتابٍ آخر ، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن ، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب ، فلهذا كان مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر ما فيها من الحق ويُبطل ما حُرِّف منها ، وينسخ ما نسخه الله ، فيقرر الدين الحق ، وهو جمهور ما فيها[3] ، ويُبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها ، والقليل[4] الذي نسخ فيها ، فإن المنسوخ قليل جدا بالنسبة إلى المحكم المقرر. انتهى.[5]

[1] هكذا في المطبوع ، وأظنه خطأ مطبعي ، وصوابه: أو بغيره.
[2] «مجموع الفتاوى» (١٧/٤٣ – ٤٥).
[3] أي: هو غالب ما فيها.
[4] أي وينسخ القليل .
[5] «مجموع الفتاوى» (١٩/١٨٤ – ١٨٥).

قلت: ولما كان القرآن لا يصير منسوخا كله ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ؛ صار القرآن مهيمناً على الكتب السابقة.

الخامس مما يتضمنه الإيمان بالكتب: الإيمان بأنها تدعو إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد بأنواعه الثلاثة ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأما الأحكام الشرعية التفصيلية فقد تتفق فيها الكتب من جهة العموم وتختلف من جهة التفصيل ، فالأمر بالصلاة والصوم – مثلا – ثابت في جميع الشرائع ، ولكن كيفية الصلاة والصوم تختلف من شريعة لأخرى بحسب ما تقتضيه حكمة الله واختياره لما يناسب عباده الذين وُضِعت لهم تلك الشريعة ، كما قال تعالى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾.

وكذلك الطيبات من الأطعمة –كمثال آخر – ، فإن الله قد أحلها لأمة محمد ﷺ ، في حين أنه حرَّم بعض الطيبات على بني إسرائيل بعدما كانت حلالا لهم ، حكمة منه سبحانه وتعالى واختيارا ، قال تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾.

وإلى هذا الاتفاق والاختلاف في الشرائع أشار النبي ﷺ بقوله: والأنبياء إخوة لعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[١]

فقوله (أولاد عَلاَّت) فيه تشبيه للأنبياء بالأبناء من أب واحد وأمهات شتى ، فالأمهات هن الشرائع وفيها يحصل الاختلاف ، والأب هو أصول الاعتقاد وهو الموطن المتفق عليه ، وهو أصول الاعتقاد وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وسيأتي قريبا إن شاء الله مزيد تفصيل لمواطن اتفاق الكتب السماوية واختلافها.

فصل في بيان أعظم الكتب

وأعظم الكتب القرآن والتوراة ، فكثيرا ما يقرن الله بينهما ، وقد ورد ذكر التوراة في القرآن كثيرا ، وأفضلهما القرآن بلا شك ، كيف لا وقد جعله الله مهيمنا على كل الكتب السماوية قبله كما تقدم ، وفيه من الإعجاز ما ليس في غيره من الكتب ، وسيأتي ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم في خاتمة مبحث الإيمان بالرسل لكونه من معجزات النبي محمد ﷺ .

فصل في بيان مواطن اتفاق الكتب السماوية ومواطن اختلافها

والكتب السماوية قاطبة متفقة على أمور ومختلفة في أمور ، فأما مواطن الاتفاق فخمسة:

---

[١] رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الأول: تتفق الكتب السماوية على وجوب الإيمان بأصول العقيدة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الثاني: تتفق الكتب السماوية على وجوب التَّعبدُ للهِ تعالى بعبادات معينة ، وقد تشترك بعض الأمم في عبادات معينة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، ولكن تلك العبادات تختلف عن بعضها في كيفية أدائها ، قال تعالى مبينا اشتراك بعض الأمم في الصلاة والزكاة ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[1] ، وقال تعالى في الصوم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[2] ، وقال لإبراهيم كما في سورة الحج ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا﴾[3].

الثالث: اتفاقها على الأمر بالعدلِ والقِسطِ ، قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[4].

والأمر بالعدل مذكور في شريعة موسى وإبراهيم ، ومن أمثلة ذلك ألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، قال تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى * ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾[5].

الرابع: اتفاقها على الأمر بحفظ الضروريات الخمس ، وهي الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

الخامس: اتفاقها على الأمر بمحاسن الأخلاق والنهي عن قبيحها ، فتأمر مثلا ببر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الضيف والعطف على الفقراء والمساكين والقول الحسن وغير ذلك ، كما أنها تنهى عن القبائح ، كالظلم والعدوان وعقوق الوالدين وانتهاك الأعراض والغيبة والكذب والسَّرقة وغير ذلك.

وأما مواطن الاختلاف بين الكتب والشرائع السماوية ففي أمرين ، وهو — أي الاختلاف – من حكمة الله تعالى ليكون لكل أمة من الشرائع ما يناسب طبيعتها ، قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[6] ، وموطِنا الاختلاف هما:

الأول: كيفية العبادات المشتركة بين الشرائع ، فالصلاة كانت مفروضة في شريعة عيسى ، ولكنها تختلف في كيفيتها عن الصلاة المفروضة في شريعة محمد ﷺ ، وربما تتفق في بعض صورها ، كما قال

[1] سورة الأنبياء: ٧٣ .

[2] سورة البقرة: ١٨٣ .

[3] سورة الحج: ٢٧ .

[4] سورة الحديد: ٢٥ .

[5] سورة النجم: ٣٦ – ٣٨ .

[6] سورة المائدة: ٤٨ .

النبي ﷺ : إنا معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نُعجِّل إفطارنا ، ونؤخِّر سحورنا ، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة.[1]

وكذلك الصوم المفروض في شريعة من قبلنا ؛ تختلف كيفيته عن الصوم في شريعة محمد ﷺ ، فقد كان الإمساك في شريعة من قبلنا يبدأ إذا استيقظ الإنسان من نومه إذا نام في أي وقت من الليل ، أوله أو وسطه أو آخره ، ويمتد ذلك الإمساك إلى مغرب الليلة القابلة ، ثم جعل الله ابتداء الإمساك في شريعة محمد ﷺ عند طلوع الفجر ، بدون اعتبار للنوم قبله ، وهذا من حكمة الله تعالى وتيسيره على هذه الأمة.

الثاني: الاختلاف في تشريع بعض الأحكام ، فقد يُحِل الله طعاما لأمة ، ويُحرِّمه على آخرين لحكمة يعلمها الله عز وجل ، قد نعلمها وقد لا نعلمها ، كما حرم الله على اليهود أنواعا من الأطعمة ، قال تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[2].

ثم في شريعة عيسى ﷺ أُحِلَّت تلك الأطعمة ، فقد قال لقومه كما حكى الله عنه ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾[3].

ثم جاءت شريعة محمد ﷺ ، فأَحلَّت الطيبات كافة وحَرَّمتِ الخبائث كافة.

فصل في بيان ما يضاد الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يضادُّه ثمانية أمور:

الأول: تكذيبها ، أي ادعاء أنها لم تنزل من عند الله ، ومن ذلك تكذيب الكفار بأن القرآن كلام الله وقالوا إنه مفترى من عند البشر ، حاشا لله ، وقد أكذب الله تعالى هذه المقولة في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾[4].

الثاني: تحريفها كما هو واقع اليهود والنصارى مع كتابيهما التوراة والإنجيل.

الثالث: معارضة القرآن بالعقول ، وادعاء أن هناك ما هو أحسن منه وأفضل.

الرابع: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن العظيم قدحا عظيما ، الإعراض عن التحاكم إليه ، واستبداله بشرائع البشر وقوانينهم ودساتيرهم الوضعية ، وفاعل ذلك حكمه من جهة تكفيره أو لا بحسب

---

[1] رواه البيهقي (٢٣٨/٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار إلى ثبوته الألباني في «الصحيحة» (٣٧٥/٤).

[2] سورة النساء: ١٤٦ .

[3] سورة آل عمران: ٥٠ .

[4] سورة يونس: ٣٨ .

حاله ، فإن كان الإعراض عن التحاكم إليه منطلقٌ من تَنَقُّص القرآن فهذا كُفرٌ لا ريب فيه ، كمن يحكم بغير ما أنزل الله في القرآن معتقدا أنه لا يصلح للتحاكم إليه في زماننا ، أو إن شريعة البشر مساوية لما في القرآن في العدل والحكمة أو أحسن منه ، فهذا كفر صريح ، لأنه تكذيب للقرآن ، وطعن في حكمِ الله وشرعِهِ ، ومن ثم فإنه تنقصٌ له ، وتنقض الله كفر ، بل يلزم منه تفضيل المخلوقين على الخالق تعالى في بعض صفاتهم ، كصفة العلم والحكمة وغيرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه ، والواجب هو التسليم لله الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1] .

وأما إن كان الإعراض عن التحاكم إليه لهوى في النفس من ظلم أو رشوة أو نحوه ، مع اعتقاده بأن حكم الله يجب العمل به وأنه الأصلح للبشر ؛ فهذا الحاكم لا يكفُر ، سواء كان واليا أو قاضيا ، بل يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو المعروف بالكفر الأصغر.

والكلام في الحكم بغير ما أنزل الله يطول ، وقد تكلم أهل العلم فيه في كتب التفسير والعقائد وغيرها.

والإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله يعتبر من ألوان الانحراف التي وقع فيه من قبلنا من الأمم كاليهود والنصارى ، عياذا بالله ، فمن وقع في ذلك فقد تشبه بهم ، وبئس من تُشُبِّهَ بهم.

الخامس: ومما ينافي الإيمان بالقرآن تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة التي لم تثبُت عن السلف الصالح ، كتفسيرات الجهمية والمعتزلة والرافضة والتفسير الإشاري ونحو ذلك.

السادس: ومما **ينافي** الإيمان بالقرآن إهانتُهُ كما يفعل السحرة من وضعِهِ في المزابل أو في أماكن قذرة وتلويثه وتمزيقه ، وهذا كفرٌ بالله العظيم ، وللعلم فإنه الشياطين لا تُتمِّم للساحر سحره إلا بإهانة القرآن العظيم.

السابع: ومما يقدح في الإيمان بالقرآن الإعراض عن العمل بأحكامه ، سواء المتعلقة بجانب الاعتقاد أو العبادات أو الآداب والسلوك.

ومما ينبغي أن يُعلم أن أعداء الدين من يهودٍ ونصارى وملحِدين ومقلِّدين لهم دور هام في صد المسلمين عن العمل بالقرآن منذ القِدم ، ومن ذلك قول «غلادستون» رئيس وزراء بريطانيا سابقا في مجلس العموم البريطاني: «مادام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع «أوربة» السيطرة على الشرق».

---

[1] سورة الملك: ١٤ .

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة سنة على استعمار الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين مادامو يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية ، فيجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودِهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم».[1]

الثامن: ومما ينافي الإيمان بالقرآن عدم الإيمان بالسنة الشريفة ، وهذا كفر بالقرآن أصلا ، لأنها — أي السنة الشريفة – وحي من عند الله ، تُبين القرآن وتفسره ، وتُخصِّص عموماته ، وتُقيِّد مطلقه.

ثم إن الله تعالى أمر الله بطاعة رسوله ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالسنة الشريفة ، قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ، وقال تعالى﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[2].

هذه أهم مظاهر الإعراض عن القرآن العظيم ، نسأل الله أن يوفقنا للإيمان به حق الإيمان ، وقراءته وتدبره والعمل به.

فصل في ثمرات الإيمان بالكتب[3]

الإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده ، حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرّع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[4].

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الصراط المستقيم والدين القويم الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده.

الخامسة: السلامة من الضلال والانحراف والتخبط الذي يقع فيه البشر بسبب بعدهم عن شريعة الله المذكورة في كتبه المنزلة.

---

[1] يُنظر للتوسع كتاب «قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله» ، لجلال العالم (ص: ٤٠) ، وقد طُبعت هذه الرسالة مستقلة ، وتقع ضمن «مجموع فتاواه» (٢١١/١) ، الناشر: دار القاسم — الرياض.

[2] سورة النساء: ٨٠ .

[3] استفدت جُلَّ هذا الفصل من كتاب «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ ، و «شرح أصول الإيمان» ، ص ٣١ ، الناشر: دار ابن خزيمة — الرياض.

[4] سورة المائدة: ٤٨ .

فائدتان تتعلقان بموضوع الإيمان بالكتب

الفائدة الأولى – الحكمة من إنزال القرآن[1]

بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن في قوله جل وعلا ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[2] ، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أخرى طرق ذلك الإخراج وهي:

الأولى والثانية والثالثة: تدبُّر آياته وتذكُّر أولوا الألباب ومن ثَمَّ حصول التقوى ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك **ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[3] ، وقال تعالى ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد **لعلهم يتقون** أو يحدث لهم ذكرا﴾[4] .

الرابعة: البِشارة بالثواب للمتقين والإنذار بالعقاب لمن أعرض عنه ، قال تعالى ﴿فإنما يسرناه بلسانك **لتبشر** به المتقين **وتنذر** به قوما لُدًّا﴾[5] .

الخامسة: تبيين الأحكام الشرعية للناس ، قال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر **لتبين للناس ما نُزِّل إليهم** ولعلهم يتفكرون﴾[6] ، وقال تعالى ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا **لتبين** لهم الذي اختلفوا فيه﴾[7] .

السادسة: تثبيت المؤمنين على الإيمان والهدى ، قال تعالى ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق **ليثبت الذين آمنوا** وهدى وبشرى للمسلمين﴾[8] .

السابعة: الحُكم بين الناس به – أي بالقرآن – ، قال تعالى ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق **لتحكم بين الناس** بما أراك الله﴾[9] ، أي: بما علَّمك في هذا القرآن من العلوم.

الفائدة الثانية – تَميُّز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية

تميز القرآن بخصائص عدة عن غيره من الكتب السماوية ، نذكر منها ثلاثة خصائص:

---

[1] استفدت هذا الفصل من «أضواء البيان» ، تفسير سورة ص ، قوله تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾.

[2] سورة إبراهيم: ١ .

[3] سورة ص: ٢٩ .

[4] سورة طه: ١٣٣ .

[5] سورة مريم: ٩٧ .

[6] سورة النحل: ٤٤ .

[7] سورة النحل: ٤٦ .

[8] سورة النحل: ١٠٢ .

[9] سورة النساء: ١٠٥ .

١. أن فيه تبيانٌ لكل شيء ، كما قال تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾[1] ، وقد بين جلال الدين السيوطي رحمه الله ذلك التبيان في تفسير الآية في كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل»[2] ، وأطال النفس فيه ، ونقله عنه الشنقيطي في تفسير الآية نفسها في كتابه «أضواء البيان» فليرجع إليه من أراد التوسع.

٢. ومن خصائص القرآن أنه يهدي عموم الناس للتي هي أقوم ، بخلاف الكتب الأخرى ، فإنها كانت تصلح لناس دون آخرين ، حكمة منه جل وعلا ، كما أن في القرآن ذكرَ المصالح التي يحتاجها البشر وتدور عليها الشرائع ، وفيه حلول المشاكل العالمية ، انظر ما قاله الشنقيطي في تفسير الآية التاسعة من سورة الإسراء في هذا الباب ، فقد تكلم عليه في نحو من خمس وخمسين صفحة.

٣. ومن أعظم خصائص القرآن العظيم أن جميع الكتب السماوية قد ضُيِّعت أو حُرِّفت إلا هو ، فقد تعهَّد الله بحفظه كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، ومن دلائل ذلك التحريف تعدد الكتب التي بأيدي أهل الكتاب — اليهود والنصارى – مع أن الله تعالى لم يُنزِّل على عيسى إلا كتابا واحدا وهو الإنجيل ، ولم ينزل على موسى إلا كتابا واحدا وهو التوراة ، ولكن لكونها لم تُحفظ فإنها حُرِّفت تدريجيا بالزيادة والإنقاص إلى أن صار كل منها كتبا وليس كتابا واحدا ، وفيها من الاختلاف والتضاد ما لا يعلم به إلا الله تعالى ، وصدق الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[3].

ومع ذلك التحريف والتبديل ؛ فإن فيها شيئا من الحق الذي يشهد له القرآن ، كنبوة محمد[4] ﷺ ، وبشرية عيسى ﷺ ، وغير ذلك من القضايا العقدية التي جاء القرآن بتصحيحها عند اليهود والنصارى ، ولكنهم لا يؤمنون بها ، إما تكبرا ، وإما جهلا ، وإما لعدم ظهور تلك الشواهد وجلائها في كتبهم المحرفة بسبب قلتها مقارنة مع ضخامة تلك الكتب وكثرة التحريف فيها ، وبكل حال فهي من الشواهد عليهم في الدنيا والآخرة.

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة عند ذكر حال الأحبار والرهبان مع الكتب المنزلة إليهم وتفريطهم في حفظها ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾[5] ، قال رحمه الله:

---

[1] سورة النحل: ٨٩ .

[2] هو من منشورات دار الأندلس الخضراء بجدة ، بتحقيق: د. عامر بن علي العرابي.

[3] سورة النساء: ٨٢ .

[4] انظر كتاب «البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب» (٩٩ دليلا على وجود النبي المبشر به في التوراة والإنجيل) ، تأليف د. صلاح الراشد ، الناشر: دار ابن حزم — بيروت.

[5] سورة المائدة: ٤٤ .

أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استُحفظوا كتاب الله يعني استُودعوه ، وطُلب منهم حفظه ، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك وحفِظوه ، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه ، ولكنه بيَّن في مواضع أخر أنهم لم يمتثلوا الأمر ، ولم يحفظوا ما استُحفظوه ، بل حرَّفوه وبدلوه عمداً ، كقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ الآية ، وقوله ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ ، وقوله ﴿فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ الآية ، وقوله جل وعلا ﴿وإنَّ منهم فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ...

ثم قال رحمه الله: والقرآن العظيم لم يكِلِ الله حفظه إلى أحد حتى يُمْكِنه تضييعَه ، بل تولى حِفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة ، كما أوضحه بقوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقوله ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «إغاثة اللهفان»:

ثم بعث الله سبحانه عبدَه ورسولَه وكلمتَه المسيح ابنَ مريم ، فجدَّد لهم الدين ، وبيَّن لهم معالمه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، والتبرِّي[1] من تلك الأحداث والآراء الباطلة ، فعادوه وكذبوه ، ورموه وأمه بالعظائم ، وراموا[2] قتله ، فطهَّره الله تعالى منهم ، ورفعه إليه فلم يصِلوا إليه بسوء ، وأقام الله تعالى للمسيح أنصارا دعوا إلى دينه وشريعته ، حتى ظهر دينُه على من خالفه ، ودخل فيه الملوك ، وانتشرت دعوته ، واستقام الأمر على السَّداد بعده نحو ثلاثمئة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء ، بل ركَّبوا دينا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَّاد الأصنام ، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يُدخلوهم في النصرانية ، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها ، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح ، كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرَّمته التوراة إلا ما أُحِل لهم بنصها ، **ثم تناسخت الشريعة** إلى أن استحلُّوا الخنزير وأحلُّوا السبت وعوَّضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة ، وكان المسيح يُصلي إلى بيت المقدس فصلُّوا هم إلى المشرق ، ولم يُعظِّم المسيح عليه السلام صليبا قط ، فعظَّموا هم الصليب وعبدوه ، ولم يصُم المسيح عليه السلام صومَهم هذا أبدا ولا شرَعه ولا أمر به البتة ، بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه

[1] أي التبرؤ.

[2] أي: قصَدوا.

إلى زمن الربيع ، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عِوضا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية ، وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة ، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم ، فغيروا دين المسيح وتقربوا إلى الفلاسفة عباد الأصنام بأن وافقوهم في بعض الأمر ليُرضوهم به وليستنصروا بذلك على اليهود. انتهى كلامه رحمه الله.[1]

---

[1] «إغاثة اللهفان» (٢/٢٧٠) ، تحقيق الفقي.

قلت: وقد أَلَّف بعض علماء الإسلام كتبا في تحريف الكتب السابقة ، كما أُلِّـفت بعض الرسائل العلمية في ذلك ، منها:

١. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٢. مصادر النصرانية – دراسة ونقدا ، عبد الرزاق بن عبد المجيد الأرو ، الناشر: دار التوحيد للنشر – الرياض
٣. تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ – أسبابه ونتائجه ، تأليف: بسمة جستنيه
٤. تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ، تأليف: القاضي أبي البقاء صالح بن الحسين ، الناشر: مكتبة العبيكان — الرياض
٥. النصرانية – الأصل والواقع ، تأليف: د. محمد السحيم ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٦. الأسفار المقدسة قبل الإسلام – دراسة لجوانب الاعتقاد في اليهودية والمسيحية ، تأليف: د. صابر طعيمة ، الناشر: عالم الكتب – لبنان

الركن الرابع: الإيمان بالرُّسُــل

الرُّسُــل جمع (رسول) بمعنى (مُرسَل) وهو المبعوث بإبلاغ شيء ، والمراد هنا: مَن أُوحي إليه من البشر بشرعٍ ، وأُمِر بتبليغِهِ.[1]

أربعة عشر فائدة في النبوات

بيان الغاية من إرسال الرسل

الرسل وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ شرعه إليهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، لأن الناس مهما أوتوا من العلم والذكاء فلا يمكن أن تستقل عقولهم بتشريع عام مُوحَّد تنتظم به مصالح الأمة على أحسن ما يكون ، وذلك لأن عقول البشر قاصرة ، أما الله فهو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2].

فمن رحمة الله تعالى أن أرسل الرسل ليبلغوا الناس ما ينفعهم ، وبهذا كانوا حجة لله على الناس ، كما قال تعالى ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[3].

وأول الرسل نوح ، قال الله تعالى ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[4].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحًا ، فإنه **أول رسول** بعثه الله إلى أهل الأرض.[5]

وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ ، قال تعالى ﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ من رجَالِكُمْ وَلَكِن رسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾[6].

ولم تخلُ أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحَى إليه بشريعة مَن قبله ليجددها ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[7] ، وقال

---

[1] انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ .

[2] سورة الملك: ١٤ .

[3] سورة النساء: ١٦٥ .

[4] سورة النساء: ١٦٣ .

[5] أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) ، ولفظ مسلم: فيأتون نوحا عليه السلام ، فيقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ... الحديث.

[6] سورة الأحزاب: ٤٠ .

[7] سورة النحل: ٣٦ .

تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[2].

ودعوة الرسل واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية ، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[3].

والرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة ، وحباهم قدرة على القيام بأعبائها والصبر على مشاقِّها ، لاسيما أولو العزم منهم[4] ، قال تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[5].

والرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ – وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله – ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6] ، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[7].

والرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت والحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[8].

وقال النبي ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني.[9]

وقد وصف الله تعالى رسله بالعبودية له في سياق الثناء عليهم ، فقال تعالى في نوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورا﴾[10] ، وقال في محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا﴾[11] ، وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

[1] سورة فاطر: ٢٤ .

[2] سورة المائدة: ٤٤ .

[3] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[4] سيأتي التعريف بهم قريبا إن شاء الله.

[5] سورة الحج: ٧٥ .

[6] سورة الأعراف: ١٨٨ .

[7] سورة الجن: ٢١-٢٢ .

[8] سورة الشعراء: ٧٩-٨١ .

[9] رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[10] سورة الإسراء:٣ .

[11] سورة الفرقان: ١ .

أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَار﴾[1] ، وقال في عيسى ابن مريم ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيل﴾[2] .

فالرسل عبيد لله ، وعليه فلا يجوز أن يُصرف لهم شيء من العبادات ، لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا سجود ولا غيرها من العبادات ، بل المستحق لذلك هو الله وحده ، وهذا أمر مُجمع عليه في جميع الشرائع السماوية كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[3] .

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض ، كما قال تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾[4] .

وأفضل الأنبياء محمد ﷺ ، فقد فضله الله على جميع الخلق أولهم وآخرهم ، الأنبياء وغيرهم ، فهو إمامهم وسيدهم ، كما قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)[5] .

كما اختصه الله بآيات تفوق تلك التي آتاها الله غيره من الأنبياء ، وآمن عليها أكثر ما آمن عليه البشر ، وأعظمها القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن آيات الأنبياء انتهت بموتهم ، أما القرآن فآية خالدة.

ومن دلائل تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى جمع فيه ما تفرق في غيره من الأنبياء من الخصائص ، وهو الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، فأما الخلة – وهي أعلى درجات المحبة – فهو خليل الله ، والله خليله ، وهو يشترك في هذه الخصلة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ﷺ : وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا.[6]

وكذلك الكلام ؛ فقد كلمه الله كِفاحا – أي مواجهةً ، ليس بينهما حجاب ولا واسطة ولا رسول[7] – يوم عُرِج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس.

وأما وصفه بالنبوة والرسالة فمعلوم من آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ، وقوله ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾.

وهذه الصفات الأربع ، الخُلَّة والكلام والنبوة والرسالة ، لم تجتمع في نبي قط إلا في نبينا محمد ﷺ ، وهذا من دلائل تفضيله على سائر الأنبياء.

---

[1] سورة ص: ٤٥ .

[2] سورة الزخرف: ٥٩ .

[3] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[4] سورة الإسراء: ٥٥ .

[5] رواه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[6] رواه مسلم (٢٣٨٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[7] انظر معنى كفاحا في كتاب «النهاية».

وممن فضله الله من الأنبياء على غيرهم: أولو العزم منهم ، وهم خمسة ؛ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن ؛ في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى ، في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[١] ، وفي قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢].

ودلائل تفضيل هؤلاء الخمسة على غيرهم من الأنبياء وكونهم من أولي العزم واضحة ، فمحمد ﷺ قد تقدم الكلام عنه.

وأما نوح ﷺ فإنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما طرأ الشرك عليهم ، وقد لبث نحو عشرة قرون يدعو إلى التوحيد.

ثم إنه أبو الأنبياء كلهم إلا آدم عليه السلام.

وأما إبراهيم ﷺ فإنه أبو الأنبياء كلهم ممن أتى بعده ، ولهذا أخبر تعالى عنه أنه جعل في ذريته النبوة والكتاب ، قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾[٣].

كما أن إبراهيم عليه السلام كان صِدِّيقا ، وهي صيغة مبالغة من الصِّدق ، لشدة صدقه في معاملته مع ربه ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفَّى﴾ ، وقوله ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ ، ودلائل صدقه في معاملته مع ربه عديدة منها رضاه بذبح ولده ، وصبره على الإلقاء في النار ، وصبره على مفارقة الأهل والوطن فرارا بدينه.[٤]

وأما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فوجه تفضيلهما على غيرهما من الأنبياء أن الله تعالى أرسلهما إلى أعظم أمة بعد أمة محمد ﷺ ، وهي أمة بني إسرائيل ، وأنزل عليهما أفضل الكتب بعد القرآن وهما التوراة والإنجيل ، وقد لقيا في سبيل تحمل أعباء الدعوة من المشاق الشيء العظيم مما هو مذكور في القرآن العظيم.[٥]

---

[١] سورة الأحزاب: ٧ .

[٢] سورة الشورى: ١٣ ، وانظر تقرير ابن كثير لهذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾. سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .

[٣] سورة الحديد: ٢٦ ، وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة العنكبوت.

[٤] انظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة مريم ، تفسير قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾.

[٥] انظر للفائدة ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في علة كون آدم عليه السلام ليس من أولي العزم في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة طه ، تفسير قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾.

وموسى أفضل من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ظاهر في كون الآيات التي آتاها الله تعالى لموسى أعظم من الآيات التي آتاها الله لعيسى ، قال ابن تيمية رحمه الله:

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعِصِي التي للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره ، وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول ، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم ، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا ، وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح ، قال تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[١] ، وقال تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾[٢] ، وقال تعالى ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾[٣].

وأيضا فموسى عليه الصلاة والسلام كان يُخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العَجَب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول ، ففيه أمران عجيبان لا يُعرف لهما نظير.

وأيضا فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرِق فيه فرعون وجنوده ، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح.

وأيضا فموسى كان الله يُطعمهم على يده المن والسلوى مع كثرة بني إسرائيل ، ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم ، وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمرا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسى في عدوه من القمل والضفادع والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح.

---

[١] سورة البقرة: ٥٥ – ٥٦ .

[٢] سورة البقرة: ٧٣ .

[٣] سورة البقرة: ٢٤٣ .

انتهى كلامه رحمه الله.[1]

فائدة

كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.[2]

وأفضل الرسل قاطبة الخليلين ، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الله لم يتخذ خليلين إلا هما عليهما الصلاة والسلام.

وأفضل الخليلين محمد ﷺ ، وقد تقدم بيان ذلك.

والرسل غالبون دائما ، كما قال تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾[3] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رُسُلِ الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لمن أُمِر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به ، وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾[4] أنه لن يقتل نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قِسمٌ مقابلٌ للغلبةِ كما بينه تعالى في قوله ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب﴾[5] الآية ، وقال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا﴾[6] الآية ، وقد نفى عن المنصور كونه مغلوبا نفيا باتا في قوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[7].[8]

وقال ابن تيمية ما محصَّله أن ظهور الأنبياء على من خالفهم بالحجة والعلم من جنس المجاهد الذي هزم عدوه ، وظهور الأنبياء على من خالفهم بالسيف وغلبتَهم عليهم من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.[9]

---

[1] انظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «الجواب الصحيح» (١٧/٤ – ١٩).

[2] قاله الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسيره مقدمة تفسير سورة الإسراء.

[3] سورة المجادلة: ٢١ .

[4] سورة الصافات: ١٧١ – ١٧٣ .

[5] سورة النساء: ٧٤ .

[6] سورة غافر: ٥١ .

[7] سورة آل عمران: ١٦٠ .

[8] انظر «أضواء البيان».

[9] انظر «النبوات» ، ص ٢٠٩ .

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم دينهم واحد ، وهو الإسلام ، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله ، وإلى هذا الاتفاق في أصل الدين أشار النبي ﷺ بقوله: والأنبياء إخوة لعَلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.[1]

الثاني: الإيمان بأن الأنبياء يُصدِّق متأخرُهم متقدمَهم ، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم ، بمعنى أن (من صدّق محمدا فقد صدّق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذّبه فقد كذّب كل نبي ، ومن عصاه[2] فقد عصى كل نبي ، قال تعالى ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾[3] ، وقال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾[4].

ومن كذَّب هؤلاء تكذيبا بجنس الرسالة فقد صرَّح بأنه يكذب الجميع ، ولهذا يقول تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ ، ولم يرسل إليهم قبل نوح أحدا ، وقال تعالى ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾[5]).[6]

قلت: ونظيره قول الله تعالى ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ ، وقوله ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

من كذَّب رسولا واحدا فقد كذَّب جميع المرسلين ، ومن كذَّب نذيرا واحدا فقد كذَّب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون «لا إله إلا الله» كما أوضحه تعالى بقوله ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[7] ، وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] أي عصيانا كليا.

[3] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

[4] سورة البقرة: ٨٥ .

[5] سورة الفرقان: ٣٧ .

[6] قاله ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٩/١٨٥).

[7] سورة النحل: ٣٦ .

نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1] وقوله تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمٰن آلهة يُعبدون﴾[2].

وأوضح تعالى أن من كذَّب بعضَهم فقد كذَّب جميعهم في قوله تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا﴾ الآية[3] ، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾[4] ، وقوله ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[5] ، وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾[6] الآية. انتهى كلامه رحمه الله.[7]

وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا محمدًا ﷺ ولم يَتّبعوه هم مكذبون للمسيح بن مريم غير متبعين له أيضًا ، لأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به فلم يتبعوه ، نسأل الله العافية والسلامة.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة ، وعددهم خمسة وعشرون ، وهم آدمُ ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وداود وسليمان وأيوب وإلياس ويونس واليسع ولوط وإدريسُ وهودٌ وشعيبٌ وصالحٌ وذو الكِفلِ ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا.

وأما من لم نعلم اسمه من الأنبياء فنؤمن به إجمالا ، وقد أومأ القرآن إليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً من قَبْلِكَ مِنْهُم من قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم من لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[8].

ورسل الله ثلاثمائة وخمسة عشر ، والدليل على هذا حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال:

يا رسول الله ، أنبيٌّ كان آدم؟

قال: نعم ، معلَّمٌ مكلَّم.

قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

---

[1] سورة الأنبياء: ٢٥ .

[2] سورة الزخرف: ٤٥ .

[3] سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١ .

[4] سورة البقرة: ٢٨٥ .

[5] سورة البقرة: ١٣٦ .

[6] سورة النساء: ١٥٢ .

[7] «أضواء البيان» ، تفسير سورة القمر: ٤١ .

[8] سورة غافر: ٧٨ .

قال: عشرة قرون.

قالوا: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟

قال: ثلاثمائة وخمس عشرة ، جمًّا غفيرا.[1]

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم ، كالأخبار الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والأخبار الصحيحة التي ذكرها أصحاب السير وكتب التاريخ ، وأما الأخبار المروية عن الرسل في كتب أهل الكتاب والتي ليس لها ما يعضدها من الأخبار الصحيحة المذكورة في كتب المسلمين فهذه لا يلزم المسلم تصديقها ولا تكذيبها ، إلا إن كانت منافية لما في كتب المسلمين الصحيحة فعندئذ يجب تكذيبها ، والديل على ذلك قول النبي ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»[2] الآية.[3]

والمقصود بالذي أنزل إليهم هو التوراة والإنجيل الأصليين التي أنزلها الله على موسى وعيسى ، وليست التوراة والإنجيل المحرفة التي بأيديهم الآن.

الخامس من مقتضيات الإيمان بالرسل: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[4].

السادس مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على وَفْق ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه بيانا شافيا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله ، قال تعالى ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾[5] ، ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾[6] ، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾[7] ، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾[8].[9]

[1] رواه الحاكم في «مستدركه» (٢/٢٦٢) ، واللفظ له ، وقال الذهبي: على شرط مسلم ، وكذا رواه الطبراني في «الكبير» (٨/١١٨-١١٩) ، وفيه: (ثلاثمائة وثلاثة عشر) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

[2] لعل هناك خطأ من النساخ ، فلفظ الآية ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ الآية (١٣٦) من سورة البقرة. وانظر تعليق محققي صحيح البخاري على الحديث ، طبعة مؤسسة الرسالة العالمية.

[3] رواه البخاري (٧٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[4] سورة النساء: ٦٥ .

[5] سورة النحل: ٣٥ .

[6] سورة النحل: ٨٢ .

[7] سورة العنكبوت: ١٨ .

[8] سورة التغابن: ١٢ .

[9] انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ، ص ٣١١ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

السابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بما أيَّدهم الله به من آيات ، وتسمى أيضا براهين ودلائل ، وهي الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيديهم دلالة على نبوتهم ، ولئلا يبقى أمرُهم مشكلا على الناس ، فإن الناس إذا رأوا رسلهم قد أُيِّـدوا بأمور فوق قدرة البشر وطاقتهم ؛ علِموا أنهم مرسلون من عند الله تعالى ، فاستيقنوا أمرهم وآمنوا بهم وثبتت قلوبهم على الدين.

ومن تلك الآيات عصا موسى التي ألقاها بين أيدي سحرة فرعون فإذا هي حية تسعى ، تلقف وتلتهم ما ألقَوه من الحبال والعصي ، فآمنوا ، لأنهم علِموا أن ما أتى به موسى من عند الله وليس سحرا ، وبعد إيمانهم بقيت العصا معه ، فلما سار بقومه تجاه البحر فرارا من فرعون ضرب بهذه العصا البحر فانفلق فسار في طريق يابس مع قومه فنجاه الله ، وفي صحراء سيناء ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا على قدر أسباط بني إسرائيل ، فعصا موسى ليست إلا آية من عند الله ليعلم الناس أنه رسول من عند الله ، فيكون حجة على من لم يؤمن ، وتثبيتا لمن آمن به ﷺ .

ومن الآيات أيضا ما أيد الله به عيسى ﷺ ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ويمسح بيده على الأكمه – وهو الذي وُلِد أعمى – والأبرص فيبرآن بإذن الله ، وكان يُحيِي الموتى بإذن الله ، أفليس هذا دليل على أنه رسول من عند الله؟ بلى والله.

كما أيد الله نبيه محمدا ﷺ بآيات كثيرة ، كلها تدل على صدق نبوته وأنه رسول من عند الله حقا ، أشهرها القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ .

تفصيل في بيان إعجاز القرآن

القرآن الكريم مُعجِزٌ من ثمانية وجوه[1] :

الأول: بيانه وفصاحته ، فالقرآن الكريم نزل على قريش بلغتهم ، وفي زمان بلغت فيه قريش الذَّرْوَةَ في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن نظم الشعر ، فظنوا في أول الأمر أنهم يستطيعوا الإتيان بمثله فقالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[2] ، فنزل القرآن بتحديهم على ثلاثة مراحل ؛ الأولى أن يأتوا بمثله[3] ، والثانية أن يأتوا بعشر سور مثله[4]، والثالثة أن يأتوا بسورة مثله[5] ، فعجِزوا مع شدة

---

[1] قولي إنها ثمانية ليس على سبيل التحديد ، ولكن بحسب ما يسر الله الوقوف عليه ، وربما كانت هناك وجوه أخرى ، فالله تعالى أعلم ، وانظر للاطلاع وجوه إعجاز القرآن الكريم العشرة كما ذكرها القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: ذكر نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها.

[2] سورة الأنفال: ٣١ .

[3] انظر سورة الطور: ٣٤ .

[4] انظر سورة هود: ١٣ .

[5] انظر سورة البقرة: ٢٣ .

حرصهم على مغالبة القرآن وقوة فصاحتهم ، فقطع الله طمعهم إلى قيام الساعة في قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[1].[2]

وقال ابن تيمية رحمه الله:

والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول ، تُتلى آيات التحدي به ويتلى قوله ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ و ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله﴾ و ﴿بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ ، ويُتلى قوله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾.

ثم مع طول الزمان قد سمِعه الموافق والمخالِف ، والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال إنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد ، وما من كلام تكلم به الناس – وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى – إلا وقد قال الناس نظيرَه وما يشبهه ويقاربه ، سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكم والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وُجد من ذلك شئ إلا وَوُجِد ما يُشبهه ويُقاربه.

والقرآن مما يَعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظُه آية ، ونظمُه آية ، وإخبارُه بالغيوب آية ، وأمرُه ونهيُه آية ، ووعدُه ووعيدُه آية ، وجلالتُه وعظمتُه وسلطانُه على القلوب آية ، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.[3]

ثانيا: أنه ليس فيه عوج لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، قال الشنقيطي رحمه الله في تعليق له على قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾:

أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان ، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات ، ومعانيه كلها في غاية الكمال ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام.[4]

---

[1] سورة الإسراء: ٨٨ .

[2] وانظر أيضا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ (سورة يونس: ٣٧).

[3] كتاب «النبوات» ، ص ٥١٥ – ٥١٧ ، باختصار يسير.

[4] «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ١٨ ، ويقع ضمن موسوعة مؤلفاته — الناشر: عالم الفوائد — مكة.

ثالثا: حِفظه من التحريف على مر العصور والدهور ، ووجه الإعجاز أنه لم يُحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حُفِظَ هذا الكتاب ، وصدق الله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

رابعا: حُسْنُ ما تضمنه القرآن من تشريع وأحكام ، تصلح لجميع البشر ولجميع الأزمنة والأمكنة ، وتشمل جميع ما يصلح العباد في دنياهم وآخرتهم ، في العقيدة والشريعة والآداب والاقتصاد والسياسة وغيرها.

خامسا: صِدقُ الأخبار التي تضمنها ، سواء التي مضت ، والتي تحصل تَبَعاً مع مرور الزمن أثناء تَنَزُّل القرآن ، أو الآيات التي فيها ذكر بعض الأمور المستقبلية ، **فأما الأخبار التي مضت** فهي كالإخبار عن خلق السماوات والأرض ، وقصة آدم وإبليس ، ثم قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ، وغيرها ، جاءت كل هذه الأخبار على لسان نبي أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وتضمن القرآن كذلك ذكر بعض الأحكام الواردة في التوراة ، وبيان كتمان أحبار اليهود لها ، حتى تحداهم القرآن بقوله ﴿قل فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين﴾[2].

وأما الأخبار التي نزلت تَبَعًا مع التنزيل فكالآيات التي نزلت لكشف أحوال المنافقين ، والآيات التي فيها إجابة على أسئلة ، كالآيات التي تَصَدَّرها قولُه ﴿ويسألونك﴾ ونحوها.

وأما الأخبار المستقبلية التي وقعت مطابقة لما أخبر فكدخول المسجد الحرام ، وهي في آخر سورة الفتح.

وأيضا قوله تعالى ﴿سيُهزم الجمع ويولون الدبر﴾[3] ، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن عمر لما نزلت هذه الآية قال: أي جمع يُهزم؟

فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وفي رواية لابن أبي حاتم: فعرفت تأويلها يومئذ.

وكذلك الآيات التي فيها تقرير عجز الناس عن أن يأتوا بآية مثل آيات القرآن ، فعجز الناس فعلا ، وكالآيات التي تقرر حفظ الله لكتابه ، كقوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، فوقع الأمر كما أخبر ، فكم من ملحدٍ حاول ثم نكص على عقبيه ، وكالآيات التي تقرر حصول العزة والكرامة والسيادة والظهور للأمة الإسلامية إن استقامت على أمر الله ، فوقع الأمر كما أخبر الله في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم

---

[1] سورة الحجر: ٩ .

[2] سورة آل عمران: ٩٣ .

[3] سورة القمر: ٤٥ .

أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾[1] ، ثم لما فشا فيهم الشرك والبدع ، والبعد عن منهج السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ؛ صاروا في ذيل الأمم ، وتسلطت عليهم الأمم الأخرى قرونا من الزمن.

ومن دلائل صدق القرآن ؛ ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فتكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه عدة آيات قرآنية قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يَهتدِ علماءُ الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من هذا الزمان.

ومن دلائل صدق القرآن ؛ ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فتكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه عدة آيات قرآنية قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يَهتدِ علماءُ الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من الزمن.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم بين أن حياة الإنسان تمر **بأربعة** مراحل ، فقال تعالى في مطلع سورة المؤمنون:

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون).

فالمرحلة الأولى هي أصل الخلقة ، لما خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ، وفي هذا يقول الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين).

المرحلة الثانية هي مرحلة تكون الإنسان في بطن أمه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المراحل التدريجية لتكون الإنسان في بطن أمه ، وهي خمسة مراحل ؛ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم فوق العظام.

فقوله: (خلقنا النطفة علقة) أي دمًا أحمر.

وبعد أربعين يومًا تتحول العلقة إلى مضغة ، أي قطعة لحم قَدْر المضغة التي يمضغها الإنسان في فمه.

ثم تتحول المضغة اللينة وتتحول خلقتها إلى عظام.

ثم تُكسى العظام لحمًا ، ثم يُنشؤه الله خلقًا آخر بنفخ الروح فيه.

فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والشاهد من هذا السَّرد لمراحل خلق الإنسان أن علم الطب الجديد اكتشف هذه المراحل كلها ، ثم تفاجأ بأنه هذه المراحل مذكورة في القرآن منذ ١٤ قرنا ، فاستدلوا من هذا على أن القرآن كلام الله ، لا يمكن أن يكون الذي أتى به بشر ، فسبحان من بهر بحكمته العقول.

وكذا الأمر بالنسبة لتكوين البحار والجبال وغيرها ، فقد جاء ذكر تكوينها الطبيعي في القرآن ، وبعد ظهور المكتشفات الحديثية وقعت مطابقة لما أخبر به القرآن.

[1] سورة النور: ٥٥ .

وقد أُلِّفَت في هذا مؤلفات كثيرة ، وأسلم بسبب اكتشاف هذا التطابق عددٌ من علماء الطبيعة ، ومن أراد التوسع فليرجع إلى البحوث الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، وصدق الله ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾[1].

سادسا: ومن دلائل إعجاز القرآن تنوُّع العلوم التي احتواها ، فعلاوة على أن القرآن الكريم قد علَّم العقيدة الصحيحة غضَّة طرية ، وهدم أساطير الخرافة والتعلق بالمخلوقات ؛ فإنه لم يقتصر على هذا ، فقد اغترف منه علماء النحو والبلاغة واللغة الشيءَ الكثير ، بل هو المعيار الأساس لضبط علومِهم.

ووجوه الإعجاز هذه كلها تدل على أن النبي ﷺ صادق فيما يُبَلِّغُه عن ربه ، فإنه من المستقر المعلوم عند قومه أنه أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين سيأتي بكل هذه الأخبار القرآنية لولا أنه يُوحى إليه من ربه؟ قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بها إلا المبطلون﴾[2].

سابعا: ومن وجوه إعجاز القرآن تأثيره البليغ في النفوس ، سواء كانت نفوسا مؤمنة أو كافرة ، وصدق الله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾[3] ، وقوله ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[4].

وقد تأثر بالقرآن بعض صناديد الكفر من قريش ، ومن ذلك قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن ، فقد روى ابن جرير في «تفسيره»[5] والحاكم في «مستدركه»[6] واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا.

قال: لم؟

قال: ليعطوكَه ، فإنك أتيت محمدا لتَعرِض لما قِبَلَه.[7]

قال: قد علِمت قريش أني من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلُغ قومك أنك منكرٌ له ، أو أنك كاره له.

---

[1] سورة الإسراء: ٨٩ .

[2] سورة العنكبوت: ٤٨ — ٤٩ .

[3] سورة الحشر: ٢١ .

[4] سورة الزمر: ٢٣ .

[5] تفسير سورة المدثر ، الآيات ١٨ — ٢٥ .

[6] (٥٠٧/٢).

[7] أي تعرِض نفسك عليه ليعطيك مالا ، فلهذا ذهبت إليه.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برَجز ولا بقصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لِقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطُلاوة[1] ، وأنه لمثمرٌ أعلاه ، مُغدِقٌ[2] أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه لَيَحْطِمُ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعْني حتى أفكر.

فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثِره عن غيره[3] ، فنزلت ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾[4].

وأخرج ابن إسحاق في السيرة[5] والبيهقي في «الدلائل»[6] واللفظ له عن الزهري قال: حُدِّثتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتُوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض: (لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا) ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقالوا: (لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود) ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال: يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا ، والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده ، حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفَرسي رهان ؛ قالوا: (منا نبي يأتيه الوحي من السماء)! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق. انتهى.

---

[1] أي رونقا وحسنا ، وقد تُفتح الطاء. انظر «النهاية».

[2] الغدق هو الماء الكثير ، وفي التنزيل ﴿لأسقيناهم ماء غدقا﴾ ، والمقصود بالمغدق في الكلام هنا كثرة خيره. انظر «لسان العرب».

[3] أي يرويه عن غيره.

[4] سورة المدثر: ١١ .

[5] كتاب «السيرة» ، ص (١٦٩) ، تحقيق محمد حميد الله.

[6] باب جماع أبواب المبعث (٢/٢٠٦).

ولما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[١] ، وكان جبير يومئذ مشركًا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.[٢]

ولما كان القرآن يتصف بهذا التأثير البليغ في النفوس ؛ تعاهد الكفار ألا يستمعوا للقرآن ، قال تعالى عنهم ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[٣] ، وما ذاك إلا لتأثيره في نفوسهم ، وإحساسهم به في أعماقهم ، ولكنهم قوم يستكبرون عن سماع الحق.

وقد أثّـرَ القرآن في بعض النصارى فآمنوا به ، قال تعالى عنهم ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبا مع الشاهدين﴾[٤] .

أما المؤمنون فتأثير القرآن فيهم واضح ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾[٥] ، والكلام في هذا يطول ، وهو موجود في مظانه ، ويكفي في هذا ما ذكره جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»[٦] ؛ أن جماعةً ماتوا عند سماع آيات من كتاب الله ، وقد أُفرِدت أسماؤهم في مصنف.

ثامنا: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ؛ كونه شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية (أي النفسية) ، فأما الأمراض الحسية فقد حذر القرآن من جملة من المطعومات والمشروبات والسلوكيات على سبيل الوقاية من الأمراض ، ومن ذلك تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وارتكاب الزنا واللواط ، وكذا إتيان النساء في المحيض.

وأما بعد الإصابة بالأمراض ؛ فقد أرشد النبي ﷺ إلى التداوي بقراءة سورة الفاتحة ، وأخبر أنها رقية ، كما أرشد القرآن إلى التداوي بالعسل ، ﴿فيه شفاء للناس﴾[٧].

وأما الأمراض النفسية ؛ فالقرآن هو أفضل الأدوية لها ، بل إن سبب هذه الأمراض هو البعد عن القرآن ، ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[٨] ، ومن تلك الأمراض القلق والاكتئاب والسحر والأخلاق الرديئة من طمع وكبر والانجراف وراء الشهوات وغير ذلك ، وذلك أن هذه الأمراض تحصل

---

[١] سورة الطور: ٣٥ – ٣٧ .

[٢] رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣ ، ٤٠٢٣).

[٣] سورة فصلت: ٢٦ .

[٤] سورة المائدة: ٨٣ .

[٥] سورة الأنفال: ٢ .

[٦] باب: النوع الرابع والستون: في إعجاز القرآن.

[٧] سورة النحل: ٦٩ .

[٨] سورة طه: ١٢٤ .

نتيجة الخواء الروحي ، وليس للخواء الروحي دواء إلا الرجوع إلى الله تعالى ، وصدق الله ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١] ، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[٢] ، ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[٣] ، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[٤].

وقد شفى الله بقراءة القرآن الألوفَ المؤلفة ممن أصيبوا بالأمراض العضوية والنفسية على مرِّ العصور ، ولا يزال هذا يُشاهدُ ويُمارسُ ، بل قد صار الاستشفاء بالقرآن مُقرَّرا في بعض العيادات النفسية.

فائدتان في باب الإيمان بالآيات التي أرسل بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الفائدة الأولى:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل كبريات الآيات على أيدي رسله من جنس ما برز فيه أهل العصر الذي بُعث فيه ذلك الرسول ، ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإقناع بأن ذلك الرسول مرسل من عند الله حقا ، ففي عصر موسى عليه الصلاة والسلام اشتهر قومه بالسحر ، فكانت آية موسى من جنس ما اشتهروا فيه وزادت عليه ، بأن كانت حقيقة لا خيالاً.

وفي عصر عيسى عليه الصلاة والسلام كان علم الطب مترقياً إلى حد كبير ، فجاءت آيته من جنس ما برزوا فيه وزيادة ، بأن جعل الله على يده الشفاء من أمراض لا يستطيع قومه علاجها وهي العمى والبرص ، بل وإحياء الموتى، كلها بإذن الله تعالى.

وكذلك الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ ، فقد ترقى الناس في عصره في جانب الفصاحة ، فكُتبت المعلقات الفصيحة ونُظمت القوافي البليغة ، فجاء القرآن معجزاً لهم أن يأتوا بمثله ، ثم أعجزهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطيعوا ذلك ولا بآية واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السِّحر وتعظيم السّحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيّرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عِباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبُعِث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرعَ الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكْمه والأبرص ، وبعْث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟

[١] سورة الرعد: ٢٨ .

[٢] سورة الإسراء: ٨٢ .

[٣] سورة يونس: ٥٧ .

[٤] سورة فصلت: ٤٤ .

وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبُلغاء ونحارير[1] الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعَشْر سُور من مثله ، أو بسورة من مثله ؛ لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[2] ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.

انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.[3]

الفائدة الثانية:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل معجزة القرآن خالدة ، أما معجزات النبي ﷺ الأخرى وكذلك معجزات الأنبياء قبله فقد انقرضت ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما مِن الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيت وحيا أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.[4]

قال النووي رحمه الله في كتابه شرح الحديث ما محصَّله أن كل نبي قد أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء ، أما معجزة القرآن فلم يُعط أحد مثله ، فلهذا كان أكثر الأنبياء تابعا.

وقيل: معناه إن معجزات الأنبياء قد انقرضت بمرور أعصارهم ولم يُشاهدها إلا من حضرها ، أما معجزة نبينا فخالدة ، فلهذا كان أكثرهم تابعا. انتهى. [5]

[1] نحارير جمع نحرير ، وهو الحاذق الماهر العاقل المجرب. انظر «لسان العرب» ، مادة (نحر).

[2] الظهير هو المعين. انظر «لسان العرب» ، مادة (ظهر).

[3] «تفسير القرآن العظيم» ، سورة آل عمران ، الآية ٤٩ ، وللقرطبي كلام مثله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، خاتمة باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها) ، وكذا ابن حجر في «فتح الباري» (٦٢٢/٨) ، شرح حديث: (وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي).

[4] رواه مسلم (١٥٢).

[5] وانظر ما قاله العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني رحمه الله (المتوفى عام ١٣٦٧ هـ) في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» ، ص ٤٦٢ ، الناشر: دار الحديث – القاهرة.

فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسل

اعلم رحمك الله أنه كما أن الإيمان بالرسل لا يتحقق إلا بأمور ؛ فإن الإيمان بهم ينتقض بأمور:

الأول: تكذيبهم ، أي تكذيب أنهم رسل من عند الله وإن كان التكذيب متعلق برسول واحد ، لأن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والتكذيب بواحد منهم يقتضي التكذيب بالجميع ، وهذا الناقض حاصل في جميع الأمم من عهد نوح إلى قيام الساعة.

الثاني: تكذيب ما جاؤوا به ولو كان جزءا من الشريعة ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بما جاء به النبي ﷺ ، ولكنه لم يؤمن بأنه خاتم الأنبياء ؛ فهذا في الحقيقة لا يعتبر مؤمنا بالنبي ﷺ ، لأن الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بما جاء به وعدم تكذيبه في شيء منه ولو كان شيئا واحدا.[1]

الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم ، فلو أن رجلا زعم أنه آمن بأن محمد ﷺ مرسل من ربه ، ولكنه أبى العمل بشريعته ، فإن هذا الرجل لا يُعد مؤمنا حتى ينقاد لشريعته ، فإن دليل الإيمان العمل ، ولهذا فإن أبا طالب عم النبي ﷺ لا يُعتبر مسلما مع كونه آمن بأن ابن أخيه رسول من عند الله حقا ، وما ذاك إلا لأنه أبى الانقياد لشريعته تقليدا لقومه ولئلا يُعيره الناس بترك دين الآباء والأجداد.

الرابع: إيذائهم ، بسبهم أو الاستهزاء بهم أو التعدي عليهم في حياتهم ، وهذا الفعل كفر ، قال تعالى ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾[2].

الخامس: الغلو فيهم ، أي تعظيمهم فوق الحد الشرعي ، بصرف شيء من العبادات لهم ، كدعائهم والسجود لهم والطواف بقبورهم والذبح لهم ، أو وصفهم بشيء من صفات الرب عز وجل ، كادعاء أنهم يعلمون الغيب ، أو يتصرفون في الكون ، ونحو ذلك ، فهذه كله شرك في العبادة وفي أسماء الله وصفاته.

تنبيه

الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الانحراف ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا بأنبياء ، وهو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، بدءا من أمة نوح إلى أمة محمد ﷺ ، فقد كان منشؤ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى في سورة نوح ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرُن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا[3] أوحى الشيطان

---

[1] يراجع للفائدة كتاب «المتنبئون في الإسلام وخطرهم على الفكر والمجتمع» ، د. غالب بن علي عواجي ، الناشر: دار النصيحة — المدينة.

[2] سورة التوبة: ٦٥ – ٦٦ .

[3] أي ماتوا.

إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالِسهم التي كانوا يجلسون أنصابا[١] ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم[٢] عُبدت.[٣]

وروى ابن جرير بإسناده إلى الثوري عن موسى عن محمد بن قيس أنه قال عن يغوث ويعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، **فعبدوهم**.[٤]

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء[٥] قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.[٦]

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتابع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ[٧] ، أما وُد فكانت لكلب بدومة الجندل[٨] ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحِمير لآل ذي الكلاع.[٩]

وقال قتادة: كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح ، **ثم اتخذها العرب بعد ذلك**.[١٠]

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.[١١]

وقد نهى الله أهل الكتاب من قبلنا عن الغلو عموما ، في الأنبياء وفي سائر أمور الدين ، فلم يستجيبوا فضلُّوا وأضلُّوا ، قال تعالى ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾[١٢].

---

[١] أي اصنعوا أنصابا ، وهي تماثيل تصنع على هيئتهم ثم تنصب في المجالس ليراها الناس فيقتدوا بهم في أفعالهم! وهكذا دخل عليهم الشيطان.

[٢] أي تحول من حال إلى حال. انظر «النهاية». قال مقيده: وسبب التحول والتحريف هو عدم الحفظ.

[٣] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[٤] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[٥] أي ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا.

[٦] «إغاثة اللهفان» ، (١٨٤/١) ، تحقيق محمد حامد الفقي.

[٧] أي بعد ذلك الزمان ، كما سيأتي في كلامه.

[٨] موضع في شمال جزيرة العرب.

[٩] رواه البخاري (٤٩٢٠).

[١٠] «تفسير ابن جرير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

[١١] «زاد المعاد» (٤٥٨/٣) ، الناشر: مؤسسة الرسالة — بيروت.

[١٢] سورة المائدة: ٧٧ .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي لا تُجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تُطروا[1] من أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلٰهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلها من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً. انتهى كلامه.

وقال رحمه الله في تفسير آية النساء ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[2].

ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله.[3] انتهى.

فصل في ثمرات الإيمان بالرسل[4]

الإيمان بالرسل له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: العلم برحمه الله تعالى وعنايته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويُبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستطيع معرفة ذلك بنفسه.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده ، وجاهدوا في سبيل ذلك.

الرابعة: الهداية إلى الدين الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالعمل بما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع المنزلة.

---

[1] الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

[2] سورة التوبة: ٣١ .

[3] رواه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له ، وأحمد (٥٥/١) ، والدارمي (٢٧٨٧).

[4] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

الخامسة: الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من عبادات ، وسؤالهم عما أشكل من أمور الدين في حياتهم ، والرجوع إلى ورثتهم – وهم العلماء – بعد مماتهم ، كما قال تعالى ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[1] ، وقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2].

فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل[3]

وقد كذَّب المعاندون رُسُلَهم ، زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الزَّعم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رسولا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾[4] ، فأبطل الله تعالى هذا الزَّعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشرًا من جنسهم ، لأنه مُرسلٌ إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولا ، ليكون مثلهم.

[1] سورة الأنعام: ٩٠ .

[2] سورة النساء: ٨٠ .

[3] هذا الفصل منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

[4] سورة الإسراء: ٩٤– ٩٥ .

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخِر هو يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يُبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، والبعث هو الإخراج ، أي إخراج الناس من قبورهم ، وسمي اليوم الآخِر بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم.

وأما يوم القيامة فسمي بذلك لأن الناس تقوم فيه لله جل وعلا ، كما قال تعالى ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[1] .

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بستة أمور ، نذكرها على سبيل السَّرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة منها:

الأول: النَّـفخ في الصُّور

الثاني: بعث الخلائق

الثالث: حدوث علامات الساعة الكبرى الأخرى

الرابع: حشر الناس في أرض المحشر

الخامس: الحساب والجزاء

السادس: دخول الجنة والنار

[1] سورة المطففين: ٤ – ٦ .

تفصيل

الأول: النَّفخ في الصُّور ، وهو أول علامات الساعة الكبرى ، وبه يكون الإيذان بيوم القيامة ، والصُّور قَـرنٌ ينفُخُ فيه ملكُ الصُّورِ نفختين ، ففي الأولى يُصعقُ الخلائق كلهم ويموتون ، دليلها قوله تعالى ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَواق﴾[1] ، أي: ما لها من إفاقة ورجوع للدنيا.

ثم يُنفخ في الصور النفخة الثانية فيقومون من قبورهم ، كما دل على ذلك قول الله تعالى ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾[2].

فبالنفخة الأولى يموت الأحياء ، وبالنفخة الثانية يحيي الأموات ، وإلى النفختين أشار الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾[3] ، فالراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية ، سميت بذلك لأنها تردُف النفخة الأولى وتتلوها ، وبينهما أربعون سنة[4].

الثاني: البعث ، وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، والبعث حق ثابت ، دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[5].

والدليل من السنة على ثبوت البعث قول النبي ﷺ : ... فيُنزِلُ الله من السماء ماء فينبُتون كما ينبُت البقل ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة.[6]

فعندئذ يقوم الناس لرب العالمين ، حفاةً غير منتعلين ، عراةً غير مستترِين ، غُرلاً غير مختتنين ، بُهماً ، أي ليس بهم شيءٌ من العاهات التي تكون في الدنيا كالعرج والعمى ونحوها ، قال الله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[7].

وبموجَب الأدلة الواردة في الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت البعث.

والحكمة تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلَّفهم به على ألسنة رسله ، قال الله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[8].

---

[1] سورة ص: ١٥ .

[2] سورة الصافات: ١٩ .

[3] سورة النازعات: ٩ - ١٠ .

[4] انظر «صحيح البخاري» (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

[5] سورة المؤمنون: ١٥-١٦ .

[6] جزء من حديث رواه البخاري (٤٩٣٥).

[7] سورة الأنبياء: ١٠٤ .

[8] سورة المؤمنون: ١١٥ .

الثالث: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حدوث علامات الساعة الكبرى غير النفخ في الصور وبعث الخلائق ، ومن ذلك زلزلة الأرض ، فإنه مما يكون من الأهوال يوم القيامة حدوث زلزال حسي للأرض كما في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[1] .

ومن علامات الساعة الكبرى تَشقُّق السماء كما قال تعالى ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدِّهان﴾[2] ، أي تكون كالجلد الأحمر ، لأن الوردة حمراء ، والدهان هو الجلد.

وفي آية أخرى شبَّه الله السماء في ذلك اليوم بالمُهل في قوله ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾[3] ، أي الشيء الذائب.

وفي ذلك اليوم تُطحن الجبال طحنا فتتفتت حتى تكون كالرمل المتهايل أو الصوف المنفوش ، كلا الوصفين متقارب ، فأما طحن الجبال فمذكور في قوله تعالى ﴿وبُسَّت الجبال بسا﴾[4] ، وأما تفتتها فمذكور في قوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله ﴿وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾[5].

وفي ذلك اليوم تُسيَّر الجبال عن أماكنها حتى تُرى كالسَّراب ، قال تعالى ﴿وسُيرت الجبال فكانت سرابا﴾[6] ، وقال تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[7].

ومن علامات الساعة الكبرى تكوير الشمس ، قال تعالى ﴿إذا الشمس كورت﴾ ، وتكوير الشمس هو لَفُّها فتكون كالعمامة ، ثم تُرمى فيذهب ضوؤها.[8]

ومن علامات الساعة الكبرى انكِدار النجوم ، أي تساقطها بعدما كانت عالية في السماء ، قال تعالى ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾.

ومن علاماتها تسجير البحار نارا ، قال تعالى ﴿وإذا البحار سجرت﴾ ، فسبحان من بيده القدرة على قلب قوانين الطبيعة إلى خلافها بأمره الكوني القدري ﴿إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.

[1] سورة الواقعة: ٤ .
[2] سورة الرحمٰن: ٣٧ .
[3] سورة المعارج: ٨ .
[4] سورة الواقعة: ٥ .
[5] سورة المزمل: ١٤ .
[6] سورة النبأ: ٢٠ .
[7] سورة النمل: ٨٨ .
[8] انظر تفسير ابن جرير رحمه الله للآية.

الرابع: ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حشر الناس إلى أرض المحشر ، والحشر هو سَوقٌ الخلائق بعد بعثهم من قبورهم وجمعهم في أرض المحشر ، ودليل الحشر قوله تعالى ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: يا أيها الناس ، إنكم تُحشرون إلى الله حفاة عراة غُـرْلاً.[3]

فيُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ، عفراء[4] ، ليس فيها مَعْلَمٌ[5] لأحدٍ[6] ، يُسمِعُهم الداعي[7] ويَنفُـذُهُم البصر[8] ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.[9]

وفي ذلك اليوم يُحشر الإنس والجن والملائكة والبهائم ، فأما حشر الإنس والجن فدليله عموم الآية المتقدمة ، وأما حشر البهائم فدليله قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[10] ، وقوله تعالى ﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾[11].

وأما دليل حشر الملائكة فدليله قوله تعالى ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[12] ، فالملائكة يُحشرون يوم القيامة بين يدي الرب صفوفا ، ولكنهم لا يحاسبون ، لكونهم مفطورين على القيام بما أمرهم الله تعالى به وعدم عصيانه ، كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[13].

وبعد الحشر العام الذي يجتمع فيه الناس في أرض المحشر يكون الحشر الخاص ، والذي يُحشر فيه المكذبون للرسل لأجل توبيخِهِم ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يُوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أمَّاذا كنتم تعملون﴾[14] ،

---

[1] سورة المؤمنون: ٧٩ .

[2] سورة النبأ: ١٨ .

[3] رواه البخاري (٦٥٢٦) ، ومسلم (٢٨٦٠).

[4] عفراء أي بيضاء بياضا ليس بالناصع. انظر «النهاية».

[5] معلم أي علامة ، كعلامات الطريق ونحوه ، وقيل: المعلم الأثر. انظر «النهاية» لابن الأثير رحمه الله.

[6] انظر البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

[7] أي أنه إذا دعاهم داعٍ فإنهم يسمعونه كلهم لأن الرض ليس فيها ما يمنع نفوذ الصوت من جدار ونحوه.

[8] أي أن البصر يبلغ أولهم وآخرهم لاستواء الأرض وعدم تَكَوُّرِها. انظر «فتح الباري» شرح حديث (٤٧١٢).

[9] برقم (٣٣٦١).

[10] سورة الأنعام: ٣٨ .

[11] سورة التكوير: ٥ .

[12] سورة الفجر: ٢٢ .

[13] سورة التحريم: ٦ .

[14] سورة النمل: ٨٣ – ٨٤ .

فالحشر الأول عام للناس كلهم لفصل القضاء ، والثاني خاص للمكذبين للرسل لتوبيخهم أمام الناس كلهم[1] ، ومعنى يُوزعون أي يُحبس أولهم على آخرهم ليجتمعون ثم يُساقون إلى النار[2].

ومما يحصل في أرض المحشر أربعة أمور:

١. فزع الناس ، ودليله قوله تعالى في مطلع سورة الحج ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾.

وليس المقصود بالزلزلة في هذه الآية الزلزلة الحسية للأرض ، وإنما المقصود هنا شدة هول يوم القيامة كما قال تعالى واصفا يوم الأحزاب ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾[3].[4]

وأما الزلزال الحسي للأرض يوم القيامة فثابت في قوله تعالى ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ ، وقوله ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾[5].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم كَرْبه ؛ فإن فهوم الناس تضطرب وتطيش في تحديد مدة لبثهم في الدنيا ، فمنهم من يقول ﴿إن لبثتم إلا عشرا﴾[6] ، ومنهم من يقول ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين﴾[7] ، وفي آية أخرى يقول الحق عنهم ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[8].

ومن شدة ذلك اليوم وعظيم هوله ؛ يذهل الناس بعضهم عن بعض ، قال تعالى ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[9].

---

[1] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة النمل ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾.

[2] قاله ابن جرير في تفسير الآية.

[3] سورة الأحزاب: ١١ .

[4] انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في خاتمة تفسير قوله تعالى من سورة الحج ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ ... الآية.

[5] سورة الواقعة: ٤ .

[6] سورة طه: ١٠٣ .

[7] سورة المؤمنون: ١١٣ .

[8] سورة الروم: ٥٥ .

[9] سورة عبس: ٢٤ – ٢٧ .

تنبيه

والذين يُصيبهم الفزع يوم القيامة هم أهل المعاصي من الكافرين والمبتدعين وعصاة المؤمنين ، أما المؤمنين الكُمَّل فلا ، قال تعالى ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾[1] ، قال الشنقيطي رحمه الله ما محصَّلُه أن هذا يدل بمفهومه على أنه يسير على المؤمنين.[2]

قلت: أي المؤمنين الكُمَّل ، الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا ما حرم الله ، فإن من خاف الله في الدنيا أمَّنه في الآخرة ، ومن أمِنه في الدنيا أفزعه في الآخرة ، قال تعالى عن المؤمنين الصادقين ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[4] ، وقوله تعالى ﴿أفمن يُلقى في النار خير أمَّن يأتي آمنا يوم القيامة﴾[5].

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾[6]: كان الحساب من ذلك في أوَّله[7] ، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة[8] ، وقرأ ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾.

٢. ومما يكون في أرض المحشر دُنُو الشمس من الخلائق حتى تكون بمقدار مِيل ، قيل مِيل المِكحلة ، وقيل ميل المسافة ، وسواء هذا أو ذاك فالشمس ستكون قريبة جدا من الرؤوس.[9]

فإن قيل: إن الجسم البشري لا يُطيق ذلك!

فالجواب أن الأجسام يوم القيامة تبعث على غير الصفة التي هي عليها في الدنيا ، بل تُبعث بعثا يتناسب مع مواقف القيامة ، فالكافر – مثلا – يكون ضِرسُهُ كجبل أحد ليتناسب مع العذاب ، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ضِرسُ الكافرِ يوم القيامة

---

[1] سورة الفرقان: ٢٦ .

[2] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الفرقان ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾.

[3] سورة الأنبياء: ١٠٣ .

[4] سورة النمل: ٨٩ .

[5] سورة فصلت: ٤٠ .

[6] سورة الفرقان: ٢٤ .

[7] أي في أول يوم القيامة.

[8] أي صاروا وقت القيلولة في منازلهم بالجنة.

[9] انظر صحيح مسلم (٢٨٦٤).

مثل أُحُد ، وعرضُ جِلدِهِ سبعون ذراعا ، وفَخِذُهُ مثل وَرِقان[1] ، ومقعده من النار مثل ما بينِي وبين الرَّبْـذَة[2].[3]

فالخلاصة أن الله تعالى بقدرته يبعث الناس يوم القيامة على خِلقةٍ تتناسب مع الشدائد التي تحصل في ذلك اليوم ، نسأل الله النجاة والعافية.

فإن قيل: هل يَسلمُ أحد من الشمس؟

فالجواب نعم ، هناك أصناف من الناس يَقيهُمُ الله شمس ذلك اليوم ، منهم السبعة الذين يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، وهو ظِلٌّ يَخلُقه الله عز وجل ، فيتَّقي به أصناف من الناس شمس ذلك اليوم ، جعلنا الله منهم ، وهم إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجُـلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: (إني أخاف الله) ، ورجُـلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.[4]

وقد نظم السبعةَ الذين يظلهم الله في ظله العلامة أبو شامة ، عبد الرحمٰن بن إسماعيل فقال:

وقال النبي المصطفى إنَّ سبعةً ... يُظلُّهم الله الكريم بظلهِ

محبٌّ عفيفٌ ناشئٌ متصدقٌ ... وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بعدلهِ[5]

٣. ومما يكون في أرض المحشر ورود الناس على حوض النبي ﷺ الذي في أرض المحشر ، فيشرب منه المؤمنون المستقيمون على الشريعة ، ويُذاد عنه صنفان من الناس:

الأول من ارتدوا عن الإسلام ، كالذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ، ومن ارتد أيضا ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

والصنف الثاني هم أهل البدَع ، فإنهم يُذادُون - أي يُطردون - عن الحوض كما تُذاد الغريبة من الإبل.[6]

---

[1] وَرِقان جبل بين المدينة ومكة. انظر «النهاية».

[2] الرِّبَذة قرية قرب المدينة. انظر «النهاية».

[3] رواه أحمد (٣٢٨/٢) ، وحسن إسناده محققو «المسند» ، (٣٦٦/٤) ، وهو عند البخاري (٦٥٥١) ومسلم (٢٨٥٢) عن أبي هريرة أيضا بلفظ أخصر من هذا ، وفيه أن عرض جلده مسيرة ثلاثة أيام.

[4] روى هذا الحديث البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والظل ليس محصورا في السبعة ، فهناك أصناف أُخَر من الناس يقيهم الله حر ذلك اليوم ويُظِلهم تحت ظله بسبب أعمال صالحة قاموا بها ، وقد جاء ذلك في أحاديث جمعها ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث ، وانظر للاستزادة كتاب «سطوع الهلال في الخصال الموجبة للظلال» ، لإبراهيم بن عبد الله الحازمي ، الناشر: دار الشريف – الرياض.

[5] نقله ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» في شرح الحديث المتقدم.

[6] انظر «صحيح مسلم» (٢٣٠٢).

وهذا الحوض يَصُبُّ فيه مِيزابان[1] من نَهَر[2] الكوثر الذي بالجنة ، ومعنى الكوثر الخير الكثير ، وطول الحوض مسيرة شهر ، فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، ورائحته أطيب من المسك ، ومذاقه أحلى من العسل ، من يشرب منه شربة فإنه لا يظمأ بعدها أبدا ، يصب فيه ميزابان من الجنة ، أحدهما من ذهب ، والآخر من فضة ، عرضه مثل طوله ، كما بين صنعاء والمدينة.[3]

قلت: وما أشد حاجة الناس للشرب منه في ذلك اليوم الشديد الحر ، الطويل الوقوف ، فمن أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ يوم القيامة فليُكثر الشرب من شريعته في الدنيا.

وحوض النبي ﷺ موجودٌ الآن ، كما قال النبي ﷺ : وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن.[4]

ولكل نبي حوض[5] ، وهذا من حكمته تعالى ورحمته بعباده ، ليشرب المؤمنون المتبعون للأنبياء السابقين.

٤. ومما يكون في أرض المحشر الشفاعة العظمى ، حيث إن الناس يوم القيامة يطول بهم الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، فيذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند ربهم لبدء الحساب ، ليرى كلٌّ سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فيعتذر عنها الأنبياء الخمسة ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم يُحيلهم عيسى ﷺ إلى محمد ﷺ ، فيذهبون إليه فيقول: (أنا لها) ، فيسجد تحت العرش ما شاء الله أن يسجد ، ثم يَفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يَفْتَحهُ على أحد قبله ، ثم يُقال له: (ارفع محمد ، وقُل يُسمع ، واشفع تُشَفَّع ، وسَل تُعطَ) ، فيشفع لأهل الموقف عند الله لبدء الحساب فيقبل الله شفاعته ، فيبدأ الحساب وفصل القضاء بين العباد كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، من لدن آدم إلى قيام الساعة.[6]

ولِعِظَم شأن هذه الشفاعة ؛ سماها أهل العلم بالشفاعة العظمى ، وهي أوَّل الشفاعات التي تكون يوم القيامة.

---

[1] الميزاب ويسمى أيضا بالمرزاب ، وهو المجرى الذي يُعد ليسيل منه الماء من موضع عال ، كسطح البيت وميزاب الكعبة. انظر «تاج العروس».

[2] قال النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣): أما النهر ففيه لغتان معروفتان ، فتح الهاء وإسكانها ، والفتح أجود ، وبه جاء القرآن العزيز.

[3] انظر الأخبار الواردة في الحوض في «صحيح البخاري» ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، وكذلك «صحيح مسلم» ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

[4] رواه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

[5] رواه الترمذي (٢٤٤٣) عن سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٥٨٩).

[6] أحاديث الشفاعة متواترة ، وردت عن جمع من الصحابة في الصحيحين وغيرهما ، انظر «صحيح البخاري» (٤٤٧٦ ، ٤٧١٢ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٣٩ ، ٧٤٤٠ ، ٧٥١٠) ، و «صحيح مسلم» (١٩٣ – ١٩٥) عن أنس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وحذيفة ، رضي الله عنهم.

وللنبي ﷺ شفاعات أخرى خاصة به وبعضها مشتركة مع غيره ، وسيأتي الكلام عليها بعد الكلام على دخول أهل الكبائر من المؤمنين للنار مراعاة للترتيب الزمني ، لأن تلك الشفاعات تكون بعد دخول الناس الجنة والنار.

وهنا انتهى الكلام عما يكون في موقف الحشر.

الخامس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ الحساب والجزاء ، والدليل على ثبوتهما قول الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[3].

والحساب والجزاء هو مقتضى الحكمة ، فإن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل ، وفرض على العباد قَبول ما جاؤوا به ، والعمل بما يجب العمل به ، وأوجب قتال المعارضين له ، وأحل دماءهم وذرياتهم ونساءهم وأموالهم ، فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا التشريع من العبثِ الذي يُنزَّه الرب الحكيم عنه.

وفي ذلك اليوم توزن أعمال الناس بموازين لإظهار عدل الله في الناس ، قال تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[4].

والناس إذا دُعوا إلى حسابهم جثوا على ركبهم مما أصابهم من الهم ، قال تعالى في سورة الجاثية ﴿وترى كل أمة **جاثية** كلُّ أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[5].

فصل

وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله صلاتُهُ ، فإن صَلحت صَلَحَ سائرُ عمله ، وإن فسدت فَسد سائرُ عمله.[6]

---

[1] سورة الغاشية: ٢٥- ٢٦ .

[2] سورة الأنعام: ١٦٠ .

[3] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[4] سورة الأنبياء: ٤٧ .

[5] سورة الجاثية: ٢٨ — ٢٩ .

[6] رواه الطبراني في الأوسط (١٨٨٠) ، (الناشر: دار الحديث – القاهرة) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٣٥٨).

وأول ما يحاسب عليه العبد فيما يتعلق بحقوق الآدميين الدماء ، لقول النبي ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء.[١]

وفي ذلك اليوم تشهد أعضاء الإنسان عليه إذا أنكر ما عمله من السيئات ، فيشهدُ عليه سمعه وبصره وجلده ، قال تعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يكسبون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾[٢].[٣]

وقال الحسن البصري في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[٤]: يا ابن آدم ، أَنصَفَك من خَلقك ، جَعَلَكَ حسيبَ نفسِك.[٥]

قال ابن كثير في تفسيره: هذا من حُسن كلام الحسن رحمه الله.

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن قتادة في قول الله تعالى ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.

وفي ذلك اليوم يُستثنى من الحساب سبعون ألفا ، لا حساب عليهم ولا عذاب – جعلنا الله منهم – وهم المؤمنون الكُمَّل ، الذين قاموا بما أوجب الله عليهم من الطاعات ، وسارَعوا في الخيرات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وقد جاء ذكرهم وصفتهم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في الصحيحين.[٦]

وقد جاء في حديث آخر ما يدل على أن المشمولين بهذا الفضل أكثر من هذا العدد ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: وعدني ربي أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وثلاث حثيات من حثياته.[٧]

اللهم اجعلنا منهم ، آمين.

---

[١] رواه البخاري (٦٥٣٣) ومسلم (١٦٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنه.

[٢] سورة فصلت: ١٩ – ٢١ .

[٣] انظر صحيح مسلم (٢٩٦٨).

[٤] سورة الإسراء: ١٤ .

[٥] رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٣).

[٦] انظر صحيح البخاري (٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠) والترمذي (٢٤٤٦) وأحمد (٢٧١/١).

[٧] أخرجه الترمذي واللفظ له (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٦) وأحمد (٢٥٠/٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٩) والطبراني في «الكبير» (٧٥٢٠ ، ٧٦٦٥ ، ٧٦٧٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وصحح إسناده الألباني رحمه الله كما في «الصحيحة» (١٩٠٩).

والحساب يشمل الجن والإنس ، فإن الجن داخلون في عموم الرسالة كما هو معلوم ، وهم مكلَّفون ، قال تعالى ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾[1] ، وقال في حور الجنة ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾[2] ، فدلت الآية على أن في الجنة جِنًّا ، دخلوها كما دخلها الإنس لما استجابوا لرسلهم.

وفي ذلك اليوم يَقتَصُّ الله من البهائمِ بعضها لبعض ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدَّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد[3] للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.[4]

أي يُقتص للشاة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحتها ، فسبحان من أبهر بعدله وحكمته العقول.

وهنا انتهى الكلام على موقف الحساب والجزاء.

السادس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدي للخلق ، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين ، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به ، وقاموا بطاعة الله ورسوله ، مخلصين لله متبعين لرسوله ، فيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[5] ، وقال تعالى ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

والجنة مئة درجة ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: الجنة مئة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مئة عام ، وقال عفان[7]: كما بين السماء إلى الأرض – ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة[8] ، والعرشُ من فوقها ، وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس.[9]

---

[1] سورة الأعراف: ٣٨ .

[2] سورة الرحمٰن: ٧٤ .

[3] يُقاد للشاة أي يُقتص لها. انظر «النهاية».

[4] رواه مسلم (٢٥٨٢).

[5] سورة البينة: ٧ – ٨ .

[6] سورة السجدة: ١٧ .

[7] أحد رواة الحديث.

[8] أنهار الجنة أربعة أجناس: الماء واللبن والخمر والعسل ، وقد جاء ذكر ذكرها في قوله تعالى في سورة محمد ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾.

[9] رواه أحمد (٥/٣١٦) ، وصحح إسناده محققو «المسند».

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى لصنفين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، فيها من أنواع العذاب والنَّكال ما لا يخطر على البال ، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾[1] ، وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾[2].

فالكافرون يبقون في النار إلى أبد ، وأما عُصاة المؤمنين فيعذبون فيها إلى أمد ، يُعذَّبون فيها بقدر ذنوبهم التي وقعوا فيها ، كخطايا اللسان ، أو الفرج ، أو قطيعة الرحم ، أو السماع المحرم ، أو النظر المحرم ، أو أكل مال محرم ونحو ذلك ، غير أن النار لا تمس أعضاء السجود ، وفي هذا تشريفٌ لعبادة الصلاة ، فمنهم من يعذب في النار إلى قدمه ، ومنهم من يغيب إلى أنصاف ساقيه ، فإذا تم استحقاقهم من النار فإنهم يُخرجون منها وقد امتُحِشوا[3] ، فيُلقَون في نَهَرٍ بأفواهِ الجنةِ[4] يقال له ماء ، فينبُتون كما تنبُتُ الحِبَّةُ[5] في حميلِ السَّيلِ ، أي جانبه.[6]

فإذا طُهِّرَ عصاةُ المؤمنين من ذنوبهم أُخرِجوا إلى الجنة.

فصل في صفة النار

وجهنم عظيمة البنيان ، فظيعة المنظر ، شديدة الحر ، فأما عِظَم بنيانها فمستفاد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زِمام[7] ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها.[8]

وأما فظاعة منظرها فمعلوم من قول الله تعالى ﴿إنها لترمي بشرر كالقصر﴾ ، فحجم الشرارة كحجم القصر العظيم ، فكيف بجوفها؟!

وأما شدة حرها فيدل له قول النبي ﷺ : ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم.

قيل: يا رسول الله ، إن كانت لكافية.

---

[1] سورة الكهف: ٢٩ ، وللفائدة فمعنى سُرادقها أي جدارها ، وقيل غير ذلك. انظر معنى الآية في «تفسير الطبري».

[2] سورة الأحزاب: ٦٤- ٦٦ .

[3] أي احترقوا ، والمَحْش احتراق الجلد وظهور العظم. انظر «النهاية».

[4] أفواه جمع فُوَّهة ، وأفواه الجنة أي أوائلها. قاله النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣).

[5] الحِبَّـة – بكسر الحاء – بزور البقول وحب الرياحين ، بخلاف الحَبة – بفتح الحاء – فهي الحنطة والشعير ونحوهما. انظر «النهاية».

[6] انظر «صحيح البخاري» (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٩) ومسلم (١٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[7] الزِّمام هو الحبل الذي تُربط فيه الناقة ونحوها مما يُقاد. انظر «لسان العرب».

[8] انظر «صحيح مسلم» (٢٨٤٢).

قال: فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها.[1]

ولجهنم سبعة أبواب ، يدخل من كل باب من تلك الأبواب نصيب مقسوم معلوم من الناس ، قال تعالى ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾[2].

فصل

وطعام أهل النار يختلف بحسبهم ، إذ أهل النار يتفاوت عذابهم فيها بحسب سيئاتهم كمًّا وكيفًا ، فمِن أهل النار من طعامه الغِسلين ، قال تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾[3] ، والغسلين هو ما يسيل من صديد أهل النار من غُسالة القروح ، ومنهم من طعامه الضَّريع ، وهو نبات الشَّبرق اليابس ، قال تعالى ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾[4] ، ومنهم من طعامه الزَّقوم ، قال تعالى ﴿إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم﴾[5].[6]

والزقوم شجرة تخرج في أصل الجحيم ، كريهة المنظر ، كريهة المأكل ، قال تعالى ﴿أذلك خير نزلا أم شجرة الزقزم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾[7].

وأما شراب أهل النار فإنهم يُسقون من الحميم – وهو الماء الحار – ويُصبُّ عليهم منه من فوق رؤوسهم ، فيُعذبون به من خارج أجسامهم وفي داخل أجوافهم ، فتنصهر جلودهم وتتقطع أمعاؤهم ، قال تعالى ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم * يُصهر به ما في بطونهم والجلود﴾[8] ، وقال تعالى ﴿وسُقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾[9].

وهناك أنواع أخرى من الأشربة يُسقى بها أهل النار ، قد أشار الله تعالى إليها في قوله ﴿هذا فليذوقوه حميم وغسَّاق * وآخر من شكله أزواج﴾[10] ، والغسَّاق هو ما يَقطِرُ من جلود أهل النار ، ذكره الراغب الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن».

---

[1] رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للبخاري.

[2] سورة الحجر: ٤٣ – ٤٤ .

[3] سورة الحاقة: ٣٦ .

[4] سورة الغاشية: ٦ .

[5] سورة الدخان: ٤٣ — ٤٦ .

[6] انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الحاقة ، قوله تعالى ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾.

[7] سورة الصافات: ٦٢ — ٦٦ .

[8] سورة الحج: ١٩ .

[9] سورة محمد: ١٥ .

[10] سورة ص: ٥٧ – ٥٨ .

وأشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة أصناف ؛ آل فرعون ، وهم فرعون وأتباعه ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، والمنافقون ، والدليل على ما تقدم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[١] ، وقوله تعالى عن أصحاب المائدة ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾[٢] ، وقوله تعالى عن المنافقين ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾[٣].

فصل

والناس كلهم يرِدون النار أي يَمُرُّون عليها ، مؤمنهم وكافرهم ، كما قال تعالى ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾[٤] ، ولكن من أراد الله نجاته من المؤمنين فإن النار لا تمسُّه ، بل يمر من فوقها على الصراط ولا تمسُّه بسوء ، أما من أراد الله عذابه من المؤمنين والكافرين فإن الكلاليب المعلقة بالصراط تخطِفُه وتُلقيه في النار ، فأما المؤمنين فيعذبون فيها بقدر معاصيهم ثم يخرجون إلى الجنة ، وأما الكافرين فيبقون فيها أبد الآباد ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية بعدها ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيا﴾[٥].[٦]

ومعنى الجِثِيِّ في الآية هو البُروك على الركب ، وهو شرُّ الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا إذا نزل به كرب.[٧]

وأهل النار يُساقون إليها عِطاشا كما قال تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردا﴾[٨] ، أي عِطاشا ، فإن أصل الوِرد هو الاتيان إلى الماء ، ولما كان الاتيان إلى الماء لا يكون إلا من عطشٍ أُطلق اسم الورد على الجماعة العطاش ، قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

وفي ذلك اليوم يكون لأهل النار علاماتٌ تَعرفهم بها ملائكة النار ، فإذا عرفَتْهُم أمسَكَتْهم بنواصيهم – والناصية هي مُقدَّم شعر الرأس – وأقدامِهم ، ثم تقذفهم في النار بقوة وعنف عياذا بالله ، قال تعالى ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذُ بالنواصي والأقدام﴾[٩] ، وقال تعالى ﴿يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعا﴾[١٠] ، ومعنى يُدعُّون أي يدفعون فيها بقوة وعنف.

---

[١] سورة غافر: ٤٦ .

[٢] سورة المائدة: ١١٥ .

[٣] سورة النساء: ١٤٥ .

[٤] سورة مريم: ٧١ .

[٥] سورة مريم: ٧٢ .

[٦] انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة من سورة مريم.

[٧] انظر تفسير ابن جرير للآية الكريمة.

[٨] سورة مريم: ٨٦ .

[٩] سورة الرحمن: ٤١ .

[١٠] سورة الطور: ١٣ .

فإن قيل: وما تلك العلامات التي يُعرف بها أهل النار؟

فالجواب أن الله تعالى قد بين في كتابه علاماتِهم المميزة لهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون كما في قوله ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾[١] ، وقال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[٢] ، وقال تعالى ﴿كأنما أُغشِيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾[٣] ، وقال تعالى ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾[٤] ، والقترة هي السواد.

وأما زُرقة العيون فمذكورة في قوله تعالى ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾[٥].

أقول: وهذا بخلاف وجوه أهل الإيمان ، فإن وجوههم بيضاء وضيئة ، كما قال تعالى ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ، ثم قال بعدها ﴿فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾.

وقال تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾[٦] ، أي حسنة مشرقة.[٧]

وأهل النار يُسحبون فيها على وجوههم كما في قوله تعالى ﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر﴾[٨].

وأهل النار يُلبَسون ثيابا من نار كما في الآية المتقدمة ﴿فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار﴾[٩] ، ويُلبسون أيضا أقمصةٍ من نحاس ملهَبٍ بالنار كما في قوله ﴿سرابيلهم من قَطِران﴾[١٠] ، والسرابيل هي القُمُص ، جمع قميص ، والقَطِران هو النحاس المذاب بالنار.

وأهل النار يُضربون فيها بمطارق من حديد كما قال تعالى ﴿ولهم مقامع من حديد﴾[١١] ، والمقامع في اللغة جمع مِقمعة ، وهي حديدة كالمحجن يُضرب بها على رأس الفيل ، ومعناها في الآية مرزبة عظيمة من حديد – وتعرف في زماننا بالمطرقة – تَضرب بها خزنة النار أهلها عياذا بالله ، ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

---

[١] سورة آل عمران: ١٠٦ .

[٢] سورة الزمر: ٦٠ .

[٣] سورة يونس: ٢٧ .

[٤] سورة عبس: ٤٠ – ٤٢ .

[٥] سورة طه: ١٠٢ .

[٦] سورة القيامة: ٢٢ .

[٧] انظر «المعجم الوسيط».

[٨] سورة القمر: ٤٨ .

[٩] سورة الحج: ١٩ .

[١٠] سورة إبراهيم: ٥٠ .

[١١] سورة الحج: ٢١ .

والحكمة من عذاب الله لأهل النار من المؤمنين تطهيرهم من الذنوب ، ثم يؤويهم الله بعد ذلك لجنته ، إذ الجنة طيبة فلا يدخلها إلا نفس طيبة ، والذنوب نجسة ، فوجب التطهير منها أولا ، وأما الكافر فإن الحكمة من عذاب الله له إهانته وخزيه ، ولا يترتب على ذلك تمحيص ولا تطهير ، لأن الخُبث متأصل فيه لا يزول بالنار ، فيبقى فيها أبد الآباد عياذا بالله.[1]

فصل

والنار أعاذنا الله منها تُبصر وتَشهق وتَزفِر ، فأما الإبصار فورد في قوله تعالى ﴿إذا **رأتهم** من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾[2] ، أي إذا رأت النار الكفار وهم في المحشر سمِعوا تغيظها وهو صوت الغليان ، وسمعوا زفيرها وشهيقها ، وهما صوتان معلومان ، والله أعلم بكنهِهِما.

والنار تضطرم وتخبو كما قال تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾[3].

والنار موعودة ملؤها كما قال تعالى ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[4].

فصل في صفة الجنة

الجنة جنان متعددة ، ليست نعيما متساويا ، بل النعيم فيها مُتفاوت ، وأهلها يتفرقون فيها بحسب أعمالهم الصالحة ، فجنتان جميع ما فيهما من ذهب ، وجنتان جميع ما فيهما من فضة ، كما قال تعالى في الجنتين الأُولَيين ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾[5] ، ثم قال في الجنتين اللتين هما دونهما في النعيم ﴿ومِن دونهما جنتان﴾[6].

روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن زيد في تفسير هاتين الآيتين ما محصَّلُه أن الجنتين الأُوليين للسابقين المقربين ، والجنتين الأُخريين للأبرار أصحاب اليمين.

وقد أشار الله تعالى إلى الفرق في النعيم بين السابقين المقربين وبين الأبرار أصحاب اليمين في مطلع سورة الواقعة وآخرها فليُرجع إليه.

ونعيم أهل الجنة يزداد ولا يبلى ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

[1] انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿ولهم عذاب مهين﴾ ، الآية: ٩ .
وانظر كذلك «دفع إيهام الاضطراب» في خاتمة كلامه على قول الله تعالى ﴿قال النار مثواكم فيها إلا ما شاء الله﴾ ، الأنعام: ١٢٨ .
[2] سورة الفرقان: ١٢ .
[3] سورة الإسراء: ٩٧ .
[4] سورة السجدة: ١٣ .
[5] سورة الرحمٰن: ٤٦ .
[6] سورة الرحمٰن: ٦٢ .

إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا ، فيقولون: وأنتم والله ، لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا.

انتهى الكلام هنا على صفة الجنة والنار.

فصل في بيان ما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر

يلتحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان كل ما يكون بعد الموت ، لأن الإنسان إذا مات فقد بدأت آخرته ، ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر أمران ؛ **الأول**: الإيمان بفتنة القبر ، **والثاني**: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه ، وهذا أوان التفصيل في كل منهما:

أ- الإيمان بفتنة القبر.

الفتنة هي السؤال والإختبار ، والمقصود بفتنة القبر سؤال الميت بعد دفنه عن ربه وعن دينه وعن نبيه ، فإن كانت الجنازة صالحة ثبَّتها الله عند السؤال فوُفِّقت للإجابة الصحيحة ، وإن كانت طالحة لم تُوفَّق للإجابة فعُذِّبت عياذا بالله ، وقد ورد في سؤال الميت في قبره أحاديث ثلاثة:

الأول: ما رواه البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قَرْعَ نعالِهم ؛ أتاه مَلَكان فيُقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل ، لمحمد ﷺ ؟

فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة.

فيراهما جميعا.

قال قتادة: وذُكِر لنا أنه يُفسَحُ له في قبره.

ثم رجع إلى حديث أنس قال:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟

فيقول: لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: (لا دَريت ولا تَليت) ، ويُضرب بمطارقَ من حديدٍ ضربةً ، فيَصيحُ صيحةً يسمعُها من يَليهِ[1] غيرُ الثَّقَلين[2].[3]

---

[1] الذي يظهر من كلام ابن حجر رحمه الله في «الفتح» أن المقصود بقوله (من يليه) أي الحيوانات ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (يسمَعُهُ كل دابة إلا الثقلين).

[2] الثقلان هما الإنس والجن ، قال ابن حجر في شرح الحديث: لأنهم كالثُّـقل على وجه الأرض.

[3] رواه البخاري (١٣٧٤).

الدليل الثاني: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن الملكين يأتيان الميت المؤمن بعد دفنه فيُجلسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ .

فيقولان له: وما عِلمك؟

فيقول: قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدّقت.

فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي ، فأفرِشوه من الجنة[1] ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوْحِها[2] وطيبها ، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير.

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجِع إلى أهلي ومالي.

ثم قال في الكافر: ويأتيه ملكان فيُجلِسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدري.

فينادي منادٍ من السماء أن كذَبَ ، فأفرشوا له من النار ، وافتحوا له باب إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسَمومها ، ويُضيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، مُنتِنُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت ، فوجهُك الوجه يجيء بالشر؟

---

[1] أي اجعلوا له فراشا من الجنة.

[2] قال الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح»: (مِن رَوحها) ؛ أي بعض رَوحها ، والروح بفتح الراء ؛ الراحة ونسيم الريح.

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: ربِّ لا تُـقِم الساعة.[1]

الدليل الثالث: ما رواه البخاري في «صحيحه» عن هشام بن عروة عن امرأته فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر عن أختها عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ... ولقد أوحِي إليَّ أنكم تُفتنون في القبور مثل – أو قريبا – من فتنة الدجال – لا أدري أيتهما قالت أسماء – يؤتى أحدكم فيُقال له: ما عِلمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن – لا أدري أي ذلك قالت أسماء – فيقول: محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وآمنا واتبعنا.

فيقال له: نم صالحا ، فقد علِمنا إن كنت لموقِنا.

وأما المنافق أو المرتاب – لا أدري أيتهما قالت أسماء – فيقول: لا أدري ، سمِعت الناس يقولون شيئا فقلته.[2]

فبيَّنت هذه الأحاديث أن الميت يُسأل في قبره ، فالمؤمن يثبته الله عند السؤال ويوفقه للإجابة الصحيحة ، كما قال تعالى ﴿يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[3] ، وأما الكافر فلا يُجيب ، فيعامله الله بما يستحق.

ب- الأمر الثاني مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر هو عذاب القبر ونعيمه ، ودليل ذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه.

ثم أقبل بوجهِهِ فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب النار .

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب القبر.

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: تعوَّذوا بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن.

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: تعوَّذوا بالله من فتنة الدجال.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٨٧/٤) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

[2] أخرجه البخاري (١٠٥٣) ، والشك في اللفظين من عند هشام بن عروة.

[3] سورة إبراهيم: ٢٧ .

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا تشهَّدَ أحدُكم فليَسْتعذ بالله من أربعٍ ، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، **ومن عذاب القبر** ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال.[2]

فصل في بيان من يستحق عذاب القبر

وعذاب القبر يكون لطائفتين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، ودليل الأول حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قبرين ، فقال: أما إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يَستَتِر[3] من بولِه.[4]

فالنميمة من كبائر الذنوب ، وكذلك عدم التنزه من البول ، فوقع مرتكبهما في معصية الله مع كونهما مسلمَين.

والدليل على عذاب القبر للكافرين قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ والملائكة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[5] ، فقوله ﴿اليوم تجزون﴾ دليل على أنهم سيباشرون العذاب فورا.

وأيضا فالسياق يُفِيد بأن الظالمين يَشُحُّون بأنفسهم ، ولا يُريدونها أن تخرج ، لأنهم يُبشَّرون بالعذاب حينها ، عياذا بالله.

وقال تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[6] ، فقوله ﴿غدوا وعشيا﴾ أي قبل قيام الساعة ، لأنه قال بعدها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ، ففرق بين العذاب الذي يكون قبل قيام الساعة والذي يكون في حينها.

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[7] ، ووجه الدلالة من الآية قول الله على لسان الملائكة ﴿وأبشروا بالجنة﴾ ، وهذا يكون حال التَّوفِّي وخُروج الروح ، فالبشارة بالجنة حال التوفِّي وخروج الروح يعد من النعيم ، وهو الشاهد.

---

[1] رواه مسلم (٢٨٦٧).

[2] رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) ، واللفظ لمسلم.

[3] أي لا يجعل بينه وبين بوله سترة ، فيصيب الثوب نجاسة بوله.

[4] رواه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢) ، واللفظ لمسلم.

[5] سورة الأنعام: ٩٣ .

[6] سورة غافر: ٤٦ .

[7] سورة فصلت: ٣٠ .

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[١].

ووجه الدلالة من الآية أن هذه البشارة بنعيم الرَّوح[٢] والريحان وجنةِ النعيم يكون إذا بلغت الروح الحلقوم كما دلت عليه الآية ، وهذا فيه دلالة على النعيم الذي يلقاه الإنسان يكون مبدؤه عند موته ، وهو أول نعيم القبر.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿كذلك يجزي الله المتقين * الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[٣] ، ووجه الدلالة من الآية قوله تعالى على لسان الملائكة حال توفيهم للمؤمنين: ﴿ادخلوا الجنة﴾.

ومن الأدلة كذلك على بشارة المؤمن بالنعيم قُبَيل خروج روحه قوله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾[٤].

وقد دلت السنة على أن المؤمن يُبشر بالنعيم قبل خروج روحه ، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم ، وفيه قول الملكين للمؤمن بعدما يجيب الملكين على أسئلة القبر: (أيتها النفس الطيبة ، أُخرُجي إلى مغفرة من الله ورضوان) ، فتفرَح الروح وتخرُج خروجا سهلا ، فأي أدلة على نعيم القبر وعذابه أدل من هذه الأدلة؟!

ثم قال:

ثم ينادي مناد من السماء أن صَدَقَ عبدي ، فافرِشوه من الجنة ، وألبِسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

قال: فيأتيه من رَوحِها وطِيبها ، ويُفسَح له في قبره مَدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حَسَنُ الوجه ، حَسَنُ الثياب ، طَيِّبُ الريح ، فيقول: أبشِر بالذي يَسُرُّك ، هذا يومك الذي كنت تُوعد.

فيقول له: من أنت ، فوجهُك الوجهُ يجيء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

---

[١] سورة الواقعة: ٨٣-٨٩ .

[٢] الرَّوح هو الراحة ، وقد تقدم بيان معنى (الروح) ، وانظر تفسير ابن كثير للآيات المتقدمة.

[٣] سورة النحل: ٣١ - ٣٢ .

[٤] سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠ .

فيقول: ربِّ أَقِمِ الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.[1]
وبمقتضى هذه الأدلة من الكتاب والسنة أجمع المسلمون على ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

فصل في الرد على منكري اليوم الآخر[2]

وقد أنكر صنف من الكفار باليوم الآخر في القديم والحديث ، من الدهرية والمشركين وغيرهم ، زاعمين أن بعث الأجساد بعد الموت غير ممكن ، وهذا الزعم باطل بدلالة الشرع والحس والعقل.
أما الشرع فقد قال الله تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3] ، وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه.
وأما الحِسُّ فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا ، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي:
المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم من بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].
المثال الثاني في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل ، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5].
المثال الثالث في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف ، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[6].

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٨٧/٤) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) و «مشكاة المصابيح» (١٦٣٠).

[2] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ١٠٥ – ١٠٨ ، وانظر للفائدة ما قاله شيخه الشنقيطي رحمه الله في هذه المسألة في كتابه «أضواء البيان» في المواطن التالية:
الأولى: تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.
الثانية: مطلع تفسير سورة الجاثية من عند قوله رحمه الله: اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة في أول سورة الجاثية هذه ثلاثة منها من براهين البعث ... الخ.
الثالثة: كتابه: «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ٣١ .

[3] سورة التغابن: ٧ .

[4] سورة البقرة: ٥٥ – ٥٦ .

[5] سورة البقرة: ٧٢-٧٣ .

[6] سورة البقرة: ٢٤٣ .

المثال الرابع في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى ، فأماته الله تعالى مئة سنة ثم أحياه ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] .

المثال الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين سأل الله تعالى أن يُرِيه كيف يُحيِي الموتى ، فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير ويفرقهن أجزاءً على الجبال التي حوله ، ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض ، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢] .

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل على إمكانية إحياء الموتى ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض آيات عيسى ابن مريم في مبحث الإيمان بالرسل ، من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل على بعث الأجساد بعد الموت فمن خمسة وجوه:

أحدها: أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلقُهُما من أعظم الخلق ، فمن خلق الأعلى فهو قادر على خلق الأدنى ، قال تعالى ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾[٣] ، وقوله ﴿يعيَ﴾ أي: يعجز.

الثاني: أن الله تعالى القادر على خلق كل شيء ابتداءً ، قادر على إعادته ، قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٤] ، وقال تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٥] ، وقال آمرا نبيه ﷺ بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم[٦] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٧].

الثالث: أن الأرض تكون مَيِّـتَةً هامـدة ليس فيها شجرة خضراء ، فينزل عليها المطر فتهتز خضراء حية ، يخرج منها من كل زوج بهيج ، قال الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزلْنَا

---

[١] سورة البقرة: ٢٥٩ .

[٢] سورة البقرة: ٢٦٠ .

[٣] سورة الجاثية: ٣٢ .

[٤] سورة الروم: ٢٧ .

[٥] سورة الأنبياء: ١٠٤ .

[٦] العظم الرميم هو العظم البالي. انظر «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني.

[٧] سورة يٰس: ٧٩ .

عَلَيْهَا الماء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿وَنزلْنَا من السَّمَاء مَاء مبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيد * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا للعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً ميتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2] .

فالشاهد أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى من قبورهم ، فكلاهما إحياء بعد إماتة.

الرابع: أن الله تعالى خلق الإنسان في أصل خلقته **من عدمٍ** لما خلق آدم عليه السلام ، ثم خلق ذريته من **أصلٍ** وهو الماء المهين ، فهل يُعجِزه أن يعيد خِلقته في اليوم الآخر من **أصلٍ** آخر وهو عَجَبُ الذَّنب[3]؟!

الخامس: أنه لو لم يكن هذا البعث لمحاسبة الناس لكان إيجاد الناس عَبَثا ، فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُرزقون ، ثم يؤمرون وينهون ، فيُطيع مطيعُهم ، ويَعصي عاصيهُم ، ثم يموتون ، ثم لا يجازى المُحسن على إحسانه ، ولا المسيء على إساءته؟!

ومن المعلوم أن إيجاد الناس عبثا أمرٌ يُنَزّه عنه الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[4] .

فصل في ثمرات الإيمان باليوم الآخر[5]

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرِّضى بها خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

الرابعة: العلم بعدل الله تعالى ، حيث أنه سيجازي العباد على أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

الخامسة: العلم بحكمة الله تعالى ، حيث أنه لم يخلق العباد عبثا ، بل خلقهم لحكمة بالغة وهي عبادته ، بفعل الطاعات واجتناب المنهيات ، ثم يحاسبهم على ذلك في الآخرة.

---

[1] سورة فصلت: ٣٩ .

[2] سورة ق: ٩ – ١١ .

[3] عَجَبُ الذنب هو الفقرة الأخيرة من العمود الفقري للإنسان ، وهو الجزء الذي لا يبلى من جسم الإنسان بعد موته.

[4] سورة المؤمنون: ١١٥ – ١١٦ .

[5] هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١٠٥ .

الركن السادس: الإيمان بالقَدَر خيره وشره

القَدَر هو تقدير الله تعالى للكائنات حسَبَ ما سبق في علمه واقتضته حكمته.

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور: الإيمان بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وهذا تفصيل الكلام فيها.

الأول: العلم ، أي الإيمان بأن الله تعالى عَلِمَ كُـلَّ شيء جملة وتفصيلاً ، أَزَلاً[١] وأبدًا ، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وإنزال المطر ، أو بأفعال عباده ، كأقوالهم وأفعالهم ، أو بأفعال الحيوانات ، فكلها معلومة لله عز وجل ، والدليل على هذا من الكتاب والسنة والعقل ، فأما الكتاب فقوله تعالى ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾[٢] ، وقال ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾[٣] ، وقال تعالى ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾[٤] ، وقال تعالى ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سِرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[٥] ، فهو يعلم السر الذي يخفيه الإنسان في قلبه ، والحديث الذي يحدث به نفسه ، ويعلم النجوى ، وهو كلام الإنسان مع صاحبه.

وقال تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾[٦].

وظلمات الأرض المقصودة في الآية الكريمة هي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الطين وظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة الغبار ، فهذه الظلمات السِّتُّ لا تحولُ دون علم الله عز وجل بتلك الحبة ورؤيته لها ، والله أعلم ، فربما كان هناك ظلمات غير هذه الظلمات السِّـتِّ لا نعلمها.

والمقصود بالكتاب المبين في الآية هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء.

قال الشيخ محمد بن عثيمين[٧] رحمه الله ما محصَّله أنه لوحٌ كَـتَب الله فيه مقادير كل شيء ، ووُصِف بكونه محفوظا لأنه محفوظٌ من أيدي الخلق ، فلا يمكن أن يُلحِق أحدٌ به شيئا ، أو يُغيِّر به شيئا أبدا ، كما أنه محفوظٌ من التغيير ، فالله عز وجل لا يُغيِّر فيه شيئا لأنه كتبه عن علم منه. انتهى[١].

---

[١] الأزل هو القِدم. انظر «لسان العرب».

[٢] سورة الأحزاب: ٤٠ .

[٣] سورة الطلاق: ١٢ .

[٤] سورة غافر: ٧ .

[٥] سورة الزخرف: ٨٠ .

[٦] سورة الأنعام: ٥٩ .

[٧] هو الشيخ الأصولي الفقيه المفسر محمد بن صالح بن عثيمين ، من علماء القرن الخامس عشر الهجري ، برّز في العقيدة والفقه والتفسير ، نفع الله به الناس في زمانه نفعا عظيما ، وانتشر علمه في الآفاق ، سواء منه ما كان مسجلا على الأشرطة أو ما كان مدونا في الكتب ، له طلبة كثر ، جُمعت فتاواه ورسائله فوقعت إلى حين كتابة هذه الأسطر في ٢٩ مجلدا ، وبعد وفاته استؤجرت قناة فضائية لبث علمه ، فتضاعف انتشار علمه على ما كان في حياته ، وهذا من دلائل الإخلاص ، نحسبه كذلك والله حسيبه ، والله يؤتي فضله من يشاء.

وعِلمُ الله بكل شيء قد دل عليه العقل ، وذلك أن الله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق ، ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلق ، قال تعالى ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2].

وعِلم الله عز وجل لم يسبقه جهلٌ ولا يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى ﴿فما بال القرون الأولى﴾ ؛ أجاب موسى فقال ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يَضل ربي ولا ينسى﴾[3] ، ومعنى لا يَضل أي لا يَجهل.

أما علم البشر فإنه محفوف بهاتين الآفتين: الجهل السابق والنسيان اللاحق.

الثاني: **الكتابة** ، أي الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة في اللوح المحفوظ ، كتب ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال تعالى ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[4].

وقال ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾[5].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **كتب** الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.[6]

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتُب.

قال: ربِّ ، وماذا أكتُب؟

قال: اكتُب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.

ثم قال عبادة لابنه: يا بني ، من مات على غير هذا فليس مني.[7]

قلت: وفي هٰذين الأمرين – العلم والكتابة – يقول الله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾[8].

انظر ترجمته في كتاب «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي – الدمام.

[1] «شرح العقيدة الواسطية» (٢/١٩٧).

[2] سورة الملك: ١٤ .

[3] سورة طه: ٥٢ .

[4] سورة التوبة: ٥١ .

[5] سورة الحديد: ٢٢ ، وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

[6] رواه مسلم (٢٦٥٣).

[7] رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) واللفظ لأبي داود ، وصححه الألباني رحمه الله.

[8] سورة الحج: ٧٠.

الثالث: المشيئة ، ومعناها الإيمان بأن جميع ما يكون ويحصل في هذا الكون لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، أي بإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وتدبير أمور هذا الكون ، أو مما يتعلق بأفعال المخلوقين ، من ذهاب ومجيء ، وفعل وترك ، وطاعة ومعصية ، وغير ذلك من أفعال العباد التي لا تعد ولا تحصى ، قال الله تعالى فيما يتعلق بفعله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾[1] ، وقال ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾[2] ، وقال ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء﴾[3].

وقال تعالى فيما يتعلق بأفعال المخلوقين ﴿وَلَوْ شَاء اللَّه لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾[4] ، فالاقتتال الذي هو فعل العبد لا يقع إلا بمشيئته ، أي بإذنه الكوني ، وقال ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[5] ، وقال ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾[6].

فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله أم بأفعال عباده ، لأن هذا الكون ملك لله ، فمادام الشيء ملكه فإنه لا يكون في ملكه إلا ما شاءه وأذن به ، ولا يكون في ملكه شيء بدون إذنه ، ولو كان يقع شيء بدون إذنه لكان ملكه ناقصا ، تعالى الله عن ذلك.

الرابع: الخلق ، أي الإيمان بأن جميع الكائنات خلقها الله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها من العدم ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[7] ، وقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[8] ، وقال عن نبي الله إبراهيم ﷺ أنه قال لقومه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[9] ، وقال ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[10].

وبهذا تم الكلام على مراتب الإيمان بالقدر ، العلم والكتابة والمشيئة والخلق.

فصل في بيان أنواع التقدير[11]

---

[1] سورة القصص: ٦٨ .

[2] سورة إبراهيم: ٢٧ .

[3] سورة آل عمران: ٦ .

[4] سورة النساء: ٩٠ .

[5] سورة الأنعام: ١١٢ .

[6] سورة الأنعام: ١٠٧ .

[7] سورة الزمر: ٦٢ .

[8] سورة الفرقان: ٢ .

[9] سورة الصافات: ٩٦ .

[10] سورة القمر: ٤٩ .

[11] هذا الفصل مختصر من «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله ، فصل: الإيمان بالقدر على أربع مراتب ، ثم زدت عليه كلاما للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله.

أنواع التقدير ثلاثة:

١. **التقدير الأزلي**[١] وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة عندما خلق الله تعالى القلم ، فقال له: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.[٢]

٢. **التقدير العُمري** ويكون عند تخليق النطفة في الرحم ، فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق وجميع ما هو لاقٍ ، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه ، ودليله حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدَكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً[٣] ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يَبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح ... الحديث.[٤]

٣. **التقدير الحَولي** ويكون في ليلة القدر ، ويقدر فيها ما يكون في السنة إلى مثلها في السنة المقبلة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين﴾[٥].

قال الحسن البصري رحمه الله: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان ، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ، يقضِي الله كلَّ أجلٍ وخلق ورزقٍ إلى مثلها.[٦]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر ، حتى الحُجَّاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.[٧]

وأخرج الطبري نحوه عن مجاهد.[٨]

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي[٩] رحمه الله في تفسيره عند تفسير قول الله تعالى ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾:

---

[١] تقدم بيان أن الأزل هو القِدم.

[٢] تقدم ذكر الحديثين الدالين على ذلك في أول الباب.

[٣] وهذا في حال كونه نُطفةً من ماء.

[٤] رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

[٥] الدخان: ٣- ٥ .

[٦] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[٧] رواه ابن جرير الطبري وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن جرير.

[٨] وصححه الشيخ د. حكمت بشير ياسين كما في كتابه «التفسير الصحيح» (٣١٣/٤) ، ط ١ ، الناشر: دار المآثر – المدينة.

[٩] هو الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ، من فحول علماء نجد ، استوطن بلدة عنيزة من مدن القصيم ، ولد عام ١٣٠٧ وتوفي عام ١٣٧٦ هجري ، تتلمذ على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد من علماء المسلمين ، كالشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وغيرهم ، رحمهم الله.

أي يُفصَل ويُميَّز ويُكتب كلُّ أمرٍ قدريٍّ وشرعيٍّ حَكَمَ اللهُ به ، وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تُكتب وتُميَّز ، فتُطابِقْ الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم[١] ، ثم إن الله تعالى قد وَكَلَ ملائكةً تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطنِ أمه[٢] ، ثم وَكَلهم بعد خروجه إلى الدنيا ؛ وَكَلَ به كراما كاتبين ، يكتُبون ويَحفظون عليه أعماله ، ثم إنه تعالى يُقدِّر في ليلة القدر ما يكون في السنة ، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه. انتهى.[٣]

ثمرات الإيمان بالقدر[٤]

الإيمان بالقدر له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: إضافة النعم إلى مُسدِيها ، فلا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدَّرَه من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطُّمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، فلا يقلق بفوات محبوب أو حصول مكروه ، لكون ذلك من عند الله ، وحصل بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو كائن لا محالة ، فإذا علم المؤمن ذلك وتيقن به ؛ صبر على ذلك واحتسب ، وفي ذلك يقول الله تعالى

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام رحمه الله.

[١] أي ما كان في التقدير الأزلي.

[٢] أي ما كان في التقدير العمري.

[٣] وهكذا قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان» ، وزاد ثلاث فوائد فقال:

فدعوى أنها (أي الليلة المباركة) ليلة النصف من شعبان —كما رُوي عن عكرمة وغيره— لا شك في أنها دعوى باطلة ، لمخالفتها لنص القرآن الصريح ، ولا شك أن كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يُوردها بعضهم في أنها من شعبان ، المخالفة لصريح القرآن ؛ لا أساس لها ، ولا يصح سند شيء منها ، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

ثم قال: وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

ثم قال: وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة يدل أيضا على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر ، فهو بيان قرآني آخر.

وإيضاح ذلك أن معنى قوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة ، من رزق وموت وحياة وولادة ومرض وصحة وخِصبٍ وجَدب وغير ذلك من أمور السنة ... وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله ﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم﴾. انتهى كلامه رحمه الله.

[٤] الثمرات الثلاث الأولى مستفادة من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١١٥ – ١١٦ .

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ من قَبْلِ أَن نبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

قوله ﴿نَبرأَها﴾ أي نخلِقها ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل على الأنفس ، وقيل على الأرض ، والكل صحيح.[2]

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.[3]

الرابعة: رجوع العبد إلى ربه إذا علم أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وأن ما أصابه من سيئة فمن نفسه.

الخامسة: معرفة حكمة الله عز وجل بالنظر إلى ما قدر وقضى من المجريات والحوادث.

[1] سورة الحديد: ٢٢-٢٣ .

[2] قاله ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (٢/٢٠٢).

[3] رواه مسلم (٢٩٩٩).

فائدة لطيفة قبل الختام

سُئل فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان[1] حفظه الله عن الحكمة في ترتيب أركان الإيمان في الآيات والأحاديث فأجاب:

بُدِئت هذه الأركان بالإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأساس ، وما سواه من الأركان تابع له. ثم ذكر الإيمان بالملائكة والرسل ؛ لأنهم الواسطة بين الله وخلقه في تبليغ رسالاته ، فالملائكة تنزل بالوحي على الرسل ، والرسل يبلغون ذلك للناس ، قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[2].

ثم ذكر الإيمان بالكتب ، لأنها الحجة والمرجع الذي جاءت به الرسل من الملائكة والنبيين من عند الله للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3].

ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر ، لأنه ميعاد الجزاء على الأعمال التي هي نتيجة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أو التكذيب بذلك ، فكان مقتضى العدالة الإلٰهية إقامة هذا اليوم للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإقامة العدل بين الناس.

ثم ذكر الإيمان بالقضاء والقدر لأهميته في دفع المؤمن إلى العمل الصالح ، واتخاذ الأسباب النافعة ، مع الاعتماد على الله سبحانه ، ولبيان أنه لا تناقض بين شرع الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه وبين قضائه وقدره ، خلافا لمن زعم ذلك من المبتدعة والمشركين الذين قالوا ﴿لو شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، سوّغوا ما هم عليه من الكفر بأن الله قدّره عليهم ، وإذا قدّره عليهم فقد رضيه منهم – بزعمهم – ، فرد الله عليهم بأنه لو رضيه منهم ما بعث رسله بإنكاره ، فقال ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[4].

---

[1] هو الشيخ الفقيه الذاب عن دين الله ، العالم في العقيدة والفقه ، المقدم في علوم الشريعة ، طالما دافع عن العقيدة الإسلامية ورد على أهل البدع ، جمعت ردوده فوقعت في ثلاث مجلدات ، له مؤلفات كثيرة في فنون متنوعة ، أوصى بالرجوع إليه الشيخان الجليلان عبد العزيز بن باز ومحمد بن عثيمين قبيل وفاتهما ، حفظه الله ذخرا للإسلام والمسلمين.

٢ سورة النحل: ٢ .

٣ سورة البقرة: ٢١٣ .

٤ سورة النحل: ٣٥ .

انتهى كلامه حفظه الله.[1]

[1] منقولة من شبكة المعلومات ، موقع شبكة سحاب السلفية.

كيفية الدخول في دين الإسلام

ربما حصل اقتناع عند بعض القراء بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق ، فخطر ببالهم سؤال وهو: ما هي الخطوات التي ينبغي لمن أراد اعتناق الدين الإسلامي أن يؤديها؟

والجواب سهل بإذن الله ، وهو أولا: نطق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله.

وهاتان الشهادتان بمجموعهما هما الركن الأول من أركان الإسلام ، فإن أركان الإسلام خمسة ؛ الأول: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله.

والثاني: إقامة الصلاة ، وهي خمس صلوات في اليوم والليلة.

والثالث: إيتاء الزكاة ، وهي قدر محدد من المال يخرجه المسلم من ماله كل سنة ويصرفه لمستحقيه من الفقراء ونحوهم.

والرابع: صوم شهر رمضان ، وفيه يكون الإمساك عن الأكل والشرب والجماع تعبدا لله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والخامس: حج بيت الله الحرام مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلا.

خاتمة ووصية

وبهذا تمت هذه النبذة في أصول الدين الإسلامي ، التي من تمسك بها نجا ، ومن حاد عنها هلك ، وهي أصول متفق عليها بين المسلمين ، ولها في دين الإسلام شأن عظيم ، وقد اعتنى بها القرآن أشد العناية ، لأن غيرها متفرع عنها ، ومبني عليها ، فإذا صلحت صلح دين المرء ، وإذا فسدت فسد تبَعًا ، ولهذا كان النبي ﷺ يؤكِّد عليها في خطب الجمعة ، قال ابن القيم رحمه الله:

وكذلك كانت خطبته ﷺ ؛ إنما هي تقرير لأصول الإيمان ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفةً بالله وأيامه.

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه ؛ وجدها كفيلةً ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تُحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تُخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون[1] من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه[2] إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم.[3]

قلت: فحريٌّ بمن ولاّهُ اللهُ منبرا من منابر الدعوة إلى الله أن يعتني بذكر أركان الإيمان ، ويؤكد عليها ، تأسيا بالنبي ﷺ في منهجه في الدعوة إلى الله.

اللهم إنا نسألك إيمانا صحيحا ، ودينا سليما ، ومردًّا غير مخزٍ ولا فاضح ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليما كثيرا.

وكتبه ماجد بن سليمان

---

[1] أي النبي ﷺ وأصحابه في خطبهم ، وهم المشار إليهم في أول الكلام.

[2] أي الله تعالى.

[3] «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/٤٢٣-٤٢٤) ، باختصار ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

ثبت لأهم المراجع

- تعظيم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزي ، تحقيق كمال بن السيد سالم ، الناشر مكتبة العلم – مصر
- الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد ، الناشر — دار القاسم — الرياض
- النبوات ، ابن تيمية ، تحقيق د. عبد العزيز الطويان ، الناشر: دار أضواء السلف – الرياض
- شرح العقيدة الواسطية ، الشيخ محمد بن عثيمين ، ط ٦ ، الناشر: دار ابن الجوزي — الدمام
- شرح ثلاثة الأصول ، محمد بن صالح بن عثيمين ، إعداد: فهد بن ناصر السليمان ، الناشر: دار الثريا – الرياض

الموضوع
من تلاعبه بهم أنهم لما عُرِضت عليهم التوراة لم يقبلوها حتى رُفِع الجبل فوق رؤوسهم فقبلوها كُرها.
من تلاعبه بهم أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه ، ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتَب الله لهم ، وفي ضمن هذا بِشارتهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم ، فأبوا طاعته وامتثال أمرِه.
من تلاعبه بهم ما قصه الله سبحانه وتعالى في كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه.
من تلاعبه بهم الإخبار عن قساوة قلوبهم وغِلَظها وعدم تمكن الإيمان فيها.
من تلاعبه بهم تحايلهم على الله لما حرم الله الصيد يوم السبت ، فتحايلوا عليه بأن ألقوا الشباك يوم الجمعة واستخرجوا ما فيها من السمك يوم الأحد.

الموضوع
من تحايلهم على الله أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها ، وهذا من التحايل على الله.
من تلاعبه بهم اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد.
من تلاعبه بهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى.
من تلاعبه بهم قتلهم لزكريا ويحيى عليهما السلام ، حتى سلَّط الله عليهم بختنصر وسنجاريب وجنودهما فقتلوا منهم مقتلة عظيمة
من تلاعبه بهم ما كان منهم في شأن المسيح ، ورميِه وأمِّه بالعظائم ، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم
من تلاعبه بهم أن ألقى إليهم أن الرب سبحانه وتعالى محجور عليه في نسخ الشرائع

الموضوع
○ فصل في بيان أعظم الكتب
○ الكتب السماوية متفقة على أمور ومختلفة في أمور
○ ثمانية أمور تُضاد الإيمان بالكتب
■ الأول: تكذيبها
■ الثاني: تحريفها
■ الثالث: معارضة القرآن بالعقول
■ السادس: الإعراض عن التحاكم إليه
■ السابع: تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة
■ الثامن: إهانتهُ كما يفعل السحرة